فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صُوًى « ومناراً » كمنار الطريق

٢٩ شعبان ١٣٤١ — ٢٥ الحمل (ر١) سنة ١٣٠١ هـ ش ١٦ ابريل ١٩٢٣

(٥١) وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ: قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ؟ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

ما تقدم من بيان الجزاء وحال أهل الجنة وأهل النار انذار عام وموضوعه عام لأنه ألقي بادىء بدء على أهل مكة ومن وراءهم من العرب فلهذا جوز المفسرون في ضمائر هاتين الآيتين أن تكون عامة تشمل الامم السالفة ويكون الكتاب في الاولى منهما للجنس ، وأن تكون خاصة بهذه الامة . وموقعها مما قبلها على الوجهين واحد وهو بيان حجة الله على البشر كافة ، وازاحة علل

الكفار وإبطال معاذيرهم ان لم يستعدوا لذلك الجزاء بعد انزال الكتب وارسال الرسل، والمختار عندنا الثاني

﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ أي ولقد جئنا هؤلاء الناس بكتاب عظيم الشأن ، كامل التبيان ، وهو القرآن ، فصلنا آياته تفصيلا على علم منا بما يحتاج اليه المكلفون من العلم والعمل لتزكية أنفسهم ، وتكميل فطرتهم ، وسعادتهم في معاشهم ومعادهم ؛ حال كونه أو لاجل أن يكون بذلك منار هداية عامة ، وسبب رحمة خاصة ، لقوم يؤمنون به ايمان اذعان يبعث على العمل بما أمر به والانتهاء عما نهي عنه ، وهو بهذا التفصيل العلمي حجة على من لا يؤمنون به اذا لم يهتدوا به ، ولم يرضوا لانفسهم ان تكون اهلا لرحمته

التفصيل عبارة عن جعل الحقائق والمسائل المراد بيانها مفصولا بعضها من بعض بما يزيل الاشتباه ، واختلاط بعضها ببعض في الافهام ، وليس معناه ذكر كل نوع منها على حدته ، ولا التطويل ببيان جميع فروعه ، ففي القرآن تفصيل كل شيء يحتاج اليه في أمر ديننا ، أسهب حيث ينبغي الاسهاب ، وأوجز حيث يكفي الايجاز

مثال ذلك في العقائد أن [illegible] ولبس على أكثرهم الامر ، ففرقوا بين توحيد الربوبية وتوحيد الالهية ، اذ ظنوا أن الايمان بوحدة الرب خالق الخلق ومدبر أموره هو الواجب له الممتنع أن يكون له شريك فيه ، دون توحيد الالهية وهو عبادته وحده ، وانه لا يضر التوجه الى غيره كما يتوجه اليه بالدعاء ، وطلب ما يعجز المرء عن نيله من طريق الاسباب ، وهذا مخ العبادة ومحضها ، وكل من يدعي مثل هذا الدعاء فقد اتخذ معبودا وإلها ، وشبهتهم في القديم والحديث ان اتخاذ ولي مع الله بقصد التقرب والتوسل به اليه وشفاعته عنده مما يرضيه ، وان المحظور هو الاستغناء به عنه ، ومأخذ هذا ما يعهدون من الملوك الظالمين الذين يتقرب اليهم الرعايا الضعفاء المستذلون بوزرائهم ، ويتوسلون اليهم بحواشيهم وحجابهم ، فلاجل هذه الشبهات كرر القرآن إبطال هذا الشرك ، وأطنب في تفصيله كل الاطناب

ومثاله في العبادات العملية أن صفة الصلاة وعدد ركعاتها مما يكفي فيه القدوة والتأسي بالرسول الموكول اليه بيان التنزيل فلهذا لم يبينها القرآن

على الوجه الذي تؤدى به ، ولكنه كرر الامر بإقامتها أي الاتيان بها على أقوم وجوهها كله وبين حكمتها وفائدتها في عدة آيات ، لان الاقامة والحكمة مما يغفل عنه أكثر الناس

ومثاله في العلم الذي هو أساس الايمان الصحيح والارتقاء في الدين والدنيا ان أكثر البشر كانوا قد ألفوا فيه التقليد والاخذ بأقوال من يثقون بهم من آبائهم ورؤساء دينهم ودنياهم ، فلهذا كرر القول ببطلان التقليد وضلال المقلدين ، وجهل الظانين والمرتابين ، وكرر الحث على النظر والاستدلال ، والاعتماد على البرهان ، والتشنيع على المعرضين عن آيات السموات والارض وما فيها من جماد ونبات وحيوان ، وعن حكمه الخاصة في خلق الانسان ، فبمثل هذا التفصيل كان الاسلام دين العلم والعقل ، وكان القرآن ينبوع الهدى والحكمة والرحمة ، فياحسرة على المحرومين من رحمته ، ويا شقاء الطاعنين في هدايته

﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ أي ليس أمامهم شيء ينتظرونه في أمره إلا وقوع تأويله ، وهو مآله وما يؤول إليه ما أخبر به من الغيب الذي يقع في المستقبل في الدنيا ثم في الآخرة ، فالنظر هنا بمعنى الانتظار ، وتأويل الكلام كتأويل الرؤيا هو عاقبتهما ، والمآل الذي يتحقق به المراد منهما ، وتقدم في أول تفسير آل عمران تفصيل الكلام فيه . روي عن قتادة في تفسير « هل ينظرون إلا تأويله » قال عاقبته ، وعن السدي قال عواقبه مثل وقعة بدر والقيامة وما وعد فيه من موعد ، وعن الربيع بن أنس قال : لا يزال يقع من تأويله أمر حتى يتم تأويله يوم القيامة — حين يدخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار فيتم تأويله يومئذ الخ فيعم كلامه كل ماله مآل ينتظر من اخبار القرآن الصادقة التي وعد وأوعد بها كلا من المؤمنين من نصر وثواب ، والكافرين من خذلان وعقاب ، وغير ذلك من أنباء الغيب

﴿ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل ﴾ أي يوم يأتي كل تأويله ونهايته في يوم القيامة وتزول كل شبهة يقول الذين نسوه في الدنيا أي تركوه كالمنسي فلم يهتدوا به ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ أي بالامر الثابت المتحقق فتماريا به وأعرضنا عنه حتى جاء وقت الجزاء عليه ﴿ فهل لنا من

شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ أي يتمنون أحد هذين الامرين ، فالاستفهام هنا للتمني ، ويحتمل أن يكون على أصله فيقع قبل دخول النار، وبعد اليأس فيها من الشفعاء، حيث يقولون فيها كما في سورة الشعراء (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم * فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) وقد تقدم في سورة الانعام أنه يقال لهم (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) وانما يتمنون الشفعاء أويتساءلون عنهم (أولا) لان قاعدة الشرك الاساسية ان النجاة عند الله وكل ما يطلب منه انما يكون بواسطة الشفعاء عنده. وعند ما يتبين لهم الحق الذي جاءت به الرسل وهو ان النجاة والسعادة انما تكون بالايمان الصحيح والعمل الصالح، ويعلمون هنالك ان الشفاعة لله وحده ، فلا يشفع أحد عنده الا باذنه ، (ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) يتمنون لو يردون الى الدنيا، فيعملوا فيها غير ما كانوا يعملون في حياتهم الاولى ، لاجل أن يكونوا أهلا لمرضاته بأن يعملوا بما أمرتهم به الرسل عليهم السلام، وقد تقدم في (آيتي ٢٧ و٢٨) من سورة الانعام تمنيهم لو يردون الى الدنيا ، فيكونوا من المؤمنين ، وأنهم لوردوا لعادوا لما نهوا وأنهم لكاذبون (١)

﴿ قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي انهم قد خسروا أنفسهم في الدنيا بتدسيتها وتدنيسها بالشرك والمعاصي ، وعدم تزكيتها بالتوحيد والفضائل والاعمال الصالحات، ويومئذ يضل ويغيب عنهم ما كانوا يفترون من خبر الشفعاء كقولهم في معبوداتهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى) وقولهم (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقد تقدم تفسير خسران النفس في (س ٦ : ١٢ و٢٠) (٢) وتفسير (وضل عنهم ما كانوا يفترون) في (٦: ٢٤) ونحوها (٦: ٩٤ وما نرى معكم شفعاءكم ـ الى قوله ـ وضل عنكم ما كنتم تزعمون) (٣)

(٥٣) انَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ

(١) راجع ص ٣٥٠ ج ٧ تفسير (٢) ص ٣٢٧ (٣) ص ٣٤٦ و٦٢٨ ج ٧

والقمرَ والنجومَ مُسخَّراتٍ بأمرِهِ، ألا لهُ الخلقُ والأمرُ تباركَ اللهُ ربُّ العالمينَ

بين الله تعالى في الآيتين اللتين قبل هذه الآية وبعد آيات الجزاء والمعاد سبب هلاك الكافرين وخسران أنفسهم بالشرك في ألوهيته، وعبادة من اتخذوهم شفعاء عنده بغير اذنه، وعدم اتباع الرسل الذين دعوهم الى عبادته وحده بشرعه لهم، دون ما ابتدعوه أو ابتدعه لهم من قبلهم، ثم قفى على ذلك بخمس آيات جامعة لجملة ما جاءت به الرسل من الدين بايجاز بليغ، ابتدأها بآية الخلق والتكوين، الهادية الى حقيقة الربوبية والالوهية برهانا على أصل الدين، فقال عز وجل:

﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ﴾ الرب هو السيد والملك والمدبر المربي، والاله هو المعبود أي الذي يتوجه اليه الانسان عند الشعور بالحاجة الى ما يعجز عنه كسبه ومساعدة الاسباب له، فيدعوه لكشف الضر أو جلب النفع، ويتقرب اليه بالاقوال والاعمال التي يرجى أن ترضيه، وبالنذر له والذبح باسمه أو لأجله، سواء كان الرجاء فيه خاصا به أو مشتركا بينه وبين معبود آخر هو فوقه أو دونه. وأما اسم الجلالة الاعظم (الله) فهو اسم لرب العالمين خالق الخلق أجمعين، الذي ينفي الموحدون الحنفاء ربوبية غيره وألوهية سواه، ويقول بعض المشركين انه أكبر الارباب أو رئيسهم وأعظم الآلهة أو مرجعهم الذي يشفعون عنده، وكان مشركو العرب وأمثالهم ينفون وجود رب سواه، وإنما يعبدون آلهة تقربهم اليه

والسموات والارض يطلقان في مثل هذا المقام على كل موجود مخلوق أو ما يعبر عنه بعض الناس بالعالم العلوي والعالم السفلي — وان كان العلو والسفل فيهما من الامور الاضافية — وقد أجمعت الامم على ان خالق جملة العالم واحد هو رب العالمين. والذين اتخذوا من دون الله أربابا كانوا يقيدون ربوبيتهم بأمور معينة وكل اليهم تدبيرها، ويسمونهم بأسماء تدل على ذلك كما تقدم بيانه في تفسير قصة ابراهيم عليه السلام من سورة الانعام. ويخصون خالق كل شيء باسم كاسم الجلالة (الله) في العربية. الا الثنوية الذين قالوا بربين مستقلين احدهما

خالق النور وفاعل الخير، والثاني خالق الظلمة ومصدر الشر

فالله تعالى يقول في هذه الآية للناس كافة ان ربكم واحد وهو الله الذى خلق السموات والارض في ستة ايام وهو المدبر لامورهما وحده، فيجب ان تعبدوه وحده، فلا يكون لكم اله غيره، وقد تطلق السموات على مادون العرش من العالم العلوي ولا سيما اذا وصفت بالسبع

واما هذه الايام الستة فهي من أيام الله التي يتحدد اليوم منها بعمل من اعماله يكون فيه، فان اليوم في اللغة هو الزمن الذى يمتاز فيه من غيره كامتياز ايامنا بما يحدها من النور والظلام، وايام العرب بما كان فيها من الحرب والخصام، وأيام الله التي أمر موسى أن يذكر قومه بها، أي أزمنة نعمه عليهم . وقد قال تعالى (وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) ووصف يوم القيامة بقوله (في يوم كان مقداره خمسين الف سنة) ولا يعقل ان تكون هذه الايام من ايام ارضنا هذه التي تحدد ليل اليوم ونهاره منها بأربع وعشرين ساعة من الساعات المعروفة [illegible] بعد خلق هذه الارض فكيف يكون أصل خلقها في ايام منها [illegible] تعالى خلقها وخلق السماء في سورة (حم السجدة ٤١) بما يدل على هذه الايام فقال (٤١: ٨ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض في يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين (٩) وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين (١٠) ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً او كرهاً قالتا اتينا طائعين (١١) فقضاهن سبع سموات في يومين واوحى في كل سماء امرها . وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم) ووصف اصل تكوينهما وحال مادتهما في سورة الانبياء بقوله (٢١ : اولم ير[١] الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي افلا يؤمنون) فيؤخذ من هذه الآيات مسائل :

(١) ان المادة التي خلقت منها السموات والارض كانت دخانا أى مثل الدخان كما قال الراغب في مفردات القرآن، وفسر الجلال الدخان بالبخار المرتفع ، وذهب

---

(١) الرؤية هنا علمية لا بصرية والمعنى انه ينبغي لهم أن يعلموا ان السموات والارض كانتا رتقا الخ

البيضاوي الى انه جوهر ظلماني ، قال : ولعله اراد به مادتها او الاجزاء المتصغرة التى ركبت منها .

(٢) ان هذه المادة الدخانية كانت واحدة ثم فتق الله رتقها أي فصل بعضها من بعض فخلق منها هذه الارض والسموات العلى

(٣) ان خلق الارض كان في يومين وتكون اليابسة و الجبال الرواسي فيها ومصادر القوت وهي أنواع النبات والحيوان في يومين آخرين تتمة أربعة أيام،

(٤) ان جميع الاحياء النباتية والحيوانية خلقت من الماء

فيؤخذ من هذا ان اليوم الاول من أيام خلق الارض هو الزمن الذي كانت فيه كالدخان حين فتقت من رتق المادة العامة التى خلق منها كل شيء مباشرة أو غير مباشرة، وان اليوم الثانى هو الزمن الذي كانت فيه مائية، بعد أن كانت بخارية أو دخانية، وان اليوم الثالث هو الزمن الذي تكونت فيها اليابسة وتأتت منها الرواسي [illegible] وان اليوم الرابع هو الزمن الذي ظهرت فيه اجناس الاحياء من النبات والحيوان [illegible] لاطوار من الخلق قد تكون متداخلة [illegible] وهي العالم العلوي بالنسبة الى أهل الارض فقد سوى أجرامها من مادتها الدخانية في يومين اي زمنين كالزمنين اللذين خلق فيهما جرم الارض، وسيأتي الكلام في هذه السموات في موضعه

هذا التفصيل الذي يؤخذ من مجموع الآيات يتفق مع المختار عند علماء الكون في هذا العصر من أن المادة التي خلقت منها هذه الاجرام السماوية وهذه الارض كانت كالدخان ويسمونها السديم وكانت مادة واحدة رتقا ثم انفصل بعضها من بعض ؛ ويصورون ذلك تصويرا مستنبطاً مما عرفوا من سنن الخلق اذا صح كان بياناً لما أجمل في الآيات، واذا لم يصح كله أو بعضه لم يكن ناقضاً لشيء منها . فهم يقولون ان تلك المادة السديمية كانت مؤلفة من من أجزاء دقيقة متحركة، وانها قد تجمع بعضها وانجذب الى بعض بمقتضى سنة الجاذبية العامة ، فكان منها كرة عظيمة تدور على محور نفسها، وان شدة الحركة أحدثت فيها اشتعالا فكانت ضياء — أي نورا ذا حرارة، وهذه الكرة الاولى من عالمنا هي التي نسميها الشمس

ويقولون أيضاً ان الكواكب الدراري التابعة لهذه الشمس فيما نشاهد من نظام عالمنا هذا قد انفتقت من رتقها ، وانفصلت من جرمها ، وصارت تدور على محاورها مثلها . ومنها أرضنا هذه فقد كانت مشتعلة مثلها . ثم انتقلت من طور الغازات المشتعلة الى طور المائية في زمن طويل بنظام مقدر بكثرة ما فيها من العنصرين اللذين يتكون منهما الماء ، فكانا يرتفعان منها في الجو فيبردان فيكونان بخاراً مائياً ينجذب اليهما ثم يتبخر منها حتى غلب عليها طور المائية . ثم تكونت اليابسة في هذا الماء بتجمع موادها طبقة بعد طبقة ، وتولدت فيها المعادن والاحياء الحيوانية والنباتية بسبب حركة أجزاء المادة وتجمع بعضها على بعض بنسب ومقادير مخصوصة . وقد ظهر بالبحث والحفر أن بعض طبقات الارض خالية من آثار الحيوان والنبات جميعاً فعلم أن تكونها كان قبل وجودهما فيها

فهذه الاقوال وما فصلوها به مما رأوه أقرب النظريات الى سنن التكون وصفة عناصره البسيطة وحركاتها ، وتكون المعادن منها ، والمادة الزلالية ذات القوى التي بها كانت [illegible] كالتغذي والالتئام والتولد وهي التي يسمونها (بروتوبلاسما) وصفة تكون الخلايا التي تركبت منها الاجسام العضوية — كل ذلك تفصيل لخلق العوالم أطوارا بسنن ثابتة وتقدير منتظم لم يكن منه شيء جزافا ، وقد أرشد الكتاب الحكيم الى هذه الحقائق العامة — الثابتة في نفسها ، وان لم يثبت كل ما قالوه من فروعها ومسائلها — بمثل قوله (إنا كل شيء خلقناه بقدر) وقوله (٢٥ : ٢ وخلق كل شيء فقدره تقديرا) وقوله حكاية عن رسوله نوح عليه السلام مخاطبا لقومه (٧١ : ١٣ ما لكم لا ترجون لله وقاراً (١٤) وقد خلقكم أطواراً (١٥) ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا (١٦) وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا (١٧) والله أنبتكم من الارض نباتاً) فمن دلائل إعجاز القرآن أنه يبين الحقائق التي لم يكن يعرفها أحد من المخاطبين بها في زمن تنزيله بعبارة لا يتحيرون في فهمها والاستفادة منها مجملة ، وان كان فهم ما وراءها من التفصيل الذي يعلمه ولا يعلمونه يتوقف على ترقي البشر في العلوم والفنون الخاصة بذلك

وقد سبق علماء الاسلام الى كثير مما يظن الآن ان علماء الافرنج قد انفردوا به من مسائل نظام الخلق . ومن ذلك قول الفخر الرازي : الاشبه ان هذه

المعمورة كانت في سالف الزمان مغمورة في البحار فحصل فيها طين لزج كثير فتحجر بعد الانكشاف وحصل الشهوق بحفر السيول والرياح ولذلك كثرت فيها الجبال . ومما يؤكد هذا الظن أننا نجد في كثير من الاحجار اذا كسرناها أجزاء الحيوانات المائية كالاصداف والحيتان اه

يظن بعض قصيري النظر وضعيفي الفكر أن الخلق الانف الجزاف، الذي لاتقدير فيه ولا تدريج نظام، أدل على وجود الخالق وعلى عظمة قدرته، ويقوي هذا الظن عند بعض الناس ما علم من كفر بعض الباحثين في نظام الخلق والتكوين وسننه بالخالق عز وجل وان كان كفرهم ذهولا واشتغالا عن الصانع بدقة الصنعة، وتجويزاً لحصول النظام فيها بنفسه مصادفة واتفاقا . والصواب المعقول أن النظام أدل الدلائل على الارادة والاختيار والعلم والحكمة في آثار القدرة ، وعلى وحدانية الخالق، فان وحدته في العالم أظهر البراهين على وحدة الرب تعالى. وما لا نظام فيه هو الذي قد يخطر في بال رائيه أن وضعه أمر اتفاقي أو من قذفات الضرورة العمياء أو بفعل أكثر من واحد . وأي عاقل لا يفرق بين كومة من الحصى رآها في [illegible] وبين قصر مشيد قد جمع فيه ما يحتاج اليه مترفو الاغنياء من حجرات ومرافق ؟ أفيعقل أن يكون النظام العام في العالم الاكبر ووحدة السنن التي قام بها بالمصادفة ؟ أو بارادات متعددة ؟

(فان قيل) قد ورد في الاخبار والآثار أن هذه الايام الستة هي من أيام دنيانا واقتصر عليه بعض مفسرينا . وفي حديث أخرجه احمد في مسنده ومسلم في صحيحه عن ابي هريرة قال : أخذ رسول الله (ص) بيدي فقال « خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الاحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الاربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر الى الليل » وهذا ظاهر في أن الخلق كان جزافا ودفعة واحدة لكل نوع في يوم من أيامنا القصيرة

(فالجواب) أن كل ماروي في هذه المسألة من الاخبار والآثار مأخوذ من الاسرائيليات لم يصح فيها حديث مرفوع، وحديث أبي هريرة هذا وهو اقواها مردود بمخالفة متنه لنص كتاب الله وأما سنده فلا يغرنك رواية مسلم له به

فهو قد رواه كغيره عن حجاج بن محمد الاعور المصيص عن ابن جريج وهو قد تغير في آخر عمره ، وثبت أنه حدث بعد اختلاط عقله ، كما في تهذيب التهذيب وغيره . ولعل هذا الحديث مما حدث بعد اختلاطه . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره بعد ايراده في تفسير الآية : وفيه استيعاب الايام السبعة والله تعالى قال (في ستة أيام) ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الاحبار ليس مرفوعا والله أعلم اه أي فيكون رفعه أبي هريرة له من خلط حجاج بن الاعور . ومدهدانا الله من قبل الى حل بعض مشكلات أحاديث أبي هريرة المتممة على الرواية عن كعب الاحبار الذي ادخل على المسلمين شيئا كثيراً من الاسرائيليات ، وخفي على كثير من المحدثين كذبه ودجله لتعبده ، وقد قويت حجتنا على ذلك بطعن أكبر الحفاظ في حديث عزي اليه فيه التصريح بالسماع . على ان رواة التفسير المأثور اخرجوا عن كعب خلاف هذا : كرواية ابن ابي شيبة عنه انه قال : بدأ الله بخلق السموات والارض يوم الاحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعة وجعل كل يوم الف سنة . وثمة آثار أخرى عن [illegible] منها بألف سنة منها رواية الضحاك عن ابن عباس ، ومثله عن مجاهد واحمد بن حنبل ، وهذا دليل على انهم وان سموا تلك الايام بأسماء أيامنا فانهم لا يعدون أنها منها ، على أن الخمسة الاولى مأخوذة من أسماء الاعداد الاولى

و في حديث أبي هريرة عند احمد ومسلم وغيرهما أن آدم خلق يوم الجمعة فاذا لم يكن هذا مما رواه عن كعب من الاسرائيليات فلا خلاف في أن خلق آدم قد كان بعد أن تم خلق الارض وصارت أيامها كما نعلم ، فنقول ان الله أعلم رسوله ان ذلك اليوم هو الذي سمي بعد ذلك بالجمعة ، والظاهر أنه لا يعد من الايام الاربعة التي خلقت فيها الارض كما في سورة حم السجدة

وسرد الآيات التي خلقت فيها السموات والارض في سفر التكوين يخالف بتفصيله ما قرره علماء الكون مخالفة صريحة تتعاصى على التأويل وقد اعترف بذلك العلماء الذين خدموا الدين من أهل الكتاب . ولم يعدوا هذه المخالفة على كثرة مسائلها مطعنا في كون سفر التكوين وحياً كسائر أسفار التوراة . وجزموا بتفسير اليوم بالزمن الطويل وان ورد في وصف كل منها : « وكان

مساء وكان صباح » وهاك أمثل حل للاشكال عندهم :

قال الدكتور بوست في قاموس الكتاب المقدس بعد تلخيص الفصلين الاول والثاني من سفر التكوين : واذا قال أحد ان قصة الخليقة في هذين الاصحاحين لا تطابق في كل شيء علم الهيئة والجيولوجيا (اي علم طبقات الارض) والنبات والحيوان أجبنا

(أولا) ان الكلام عن الخليقة في هذه الآية ليس كلاما علميا

(ثانيا) إنه يطابق قواعد العلم الرئيسية مطابقة غريبة لا يسعنا البحث عنها هنا مليا ، فقد أجمع العلماء على أن المادة قبل النور ولازمة لظهور النور وان النور المنتشر قد سبق جمع المادة على هيئة شموس وسيارات ، وان الاجرام السماوية لم تظهر للواقف على سطح الارض قبل فصل الابخرة عن سطحها وتكوين الجلد ، وان كل هذه [illegible] الحياة النباتية والحيوانية وان الانسان آخر الخليقة الحيوانية اه

ونقول إن في [illegible] الخوض فيها هنا ولو أن القرآن هو الذي فصل ذلك التفصيل للخليقة [illegible] منا بوست بمثل هذا التأويل في الرد على من كانوا ينكرون عليه ما أنكروا على التوراة . ومن الظاهر الجلي أن سفر التكوين موضوع لبيان صفة الخلق بالتفصيل فلا يصح أن يخالف الواقع اذا كان وحيا من الله ، واما القرآن فلم يذكر ذلك الا لاجل الاستدلال به على وحدانية الرب واستحقاقه للعبادة وحده كما بينا آنفاً .

﴿ ثم استوى على العرش ﴾ أي ثم أنه سبحانه وتعالى قد استوى بعد تكوين هذا الملك على عرشه كما يليق به يدبر أمره ويصرف نظامه حسب تقديره الذي اقتضته حكمته فيه كما قال في سورة يونس (١٠ : ٣ ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الامر ما من شفيع إلا من بعد اذنه) وفي سورة الرعد (١٣ : ٢ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون (٣) وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) وهو بمعنى ما هنا .

العرش في الاصل الشيء المسقف كما قال الراغب وبينا اشتقاقه في تفسير الجنات المعروشات من سورة الانعام . ويطلق على هودج المرأة يشبه عريش الكرم وعلى سرير الملك وكرسيه الرسمي في مجلس الحكم والتدبير .

وحقيقة الاستواء في اللغة التساوي، واستقامة الشيء واعتداله ، ومن المجاز كما في الاساس: استوى على الدابة وعلى السرير والفراش، وانتهى شبابه،واستوى على البلد اه وقال في مادة ع ر ش : واستوى على عرشه — اذا ملك ، وثل عرشه — اذا هلك اه وفي المصباح: واستوى على سرير الملك — كناية عن التملك وان لم يجلس عليه، كما قيل مبسوط اليد ومقبوض اليد، كناية عن الجود والبخل اه

لم يشتبه أحد من الصحابة في معنى استواء الرب تعالى على العرش على علمهم بتنزهه سبحانه عن صفات البشر وغيرهم من الخلق اذ كانوا يفهمون ان استواءه تعالى على عرشه عبارة عن استقامة أمر ملك السموات والارض له وانفراده هو بتدبيره . وان الايمان بذلك لا يتوقف على معرفة كنه ذلك التدبير وصفته وكيف [illegible] عن وجه عرش ، ولكن ورد في الكتاب والسنة ان [illegible] قبل خلق السموات والارض. وأن له حملة من الملائكة، فهو كما تدل اللغة مركز تدبير العالم كله. قال تعالى في سورة هود (١١: ٧ وهو الذي خلق السموات والارض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) ولكن عقيدة التنزيه القطعية الثابتة بالنقل والعقل كانت مانعة لكل منهم أن يتوهم أن في التعبير بالاستواء على العرش شبهة تشبيه للخالق بالمخلوق. كيف وان بعض القرائن الضعيفة لفظية أو معنوية تمنع في لغتهم حمل اللفظ على معناه الحقيقي فكيف اذا كان لا يعقل؟ فكيف والاستواء على الشيء مستعمل في البشر استعمالا مجازيا وكنائيا كما تقدم؟ والقاعدة التي كانوا عليها في كل ما أسنده الرب تعالى الى نفسه من الصفات والافعال التي وردت اللغة في استعمالها في الخلق أن يؤمنوا بما تدل عليه من معنى الكمال والتصرف مع التنزيه عن تشبيه الرب بخلقه. فيقولون انه اتصف بالرحمة والمحبة، واستوى على عرشه بالمعنى الذي يليق به ، لا بمعنى الانفعال الحادث الذي نجده للحب والرحمة في أنفسنا، ولا ما نعهده من الاستواء والتدبير من ملوكنا وحسبنا أن نستفيد من وصفه بهاتين الصفتين أثرهما في خلقه، وأن نطلب رحمته، ونعمل ما يكسبنا محبته، وما يترتب عليهما من مثوبته وإحسانه، ومن الاستواء على

عرشه كون الملك والتدبير له وحده ، فلا لعبد غيره ، ولذلك قرنه في آخر آية يونس بقوله (ما من شفيع إلا من بعد إذنه) وفي سورة الم السجدة (٣٢ : ٣ الله الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ؟) وهذا يؤيد ما صدرنا به تفسير الآية من أنها كأمثالها تقرر وحدانية الربوبية ، على انها حجة لوحدانية الالهية ، وإبطال عبادة غيره تعالى معه بمعنى ما كانوا يدعونه من الشفاعة .

أخرج ابن مردويه واللالكائي في السنة ان أم سلمة أم المؤمنين (رض) قالت في الجملة : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والاقرار به إيمان ، والجحود به كفر . فان صح كان سببه شبهة بلغتها من بعض التابعين اذ حدث من بعضهم الاشتباه في فهم أمثال هذه النصوص ، كما كثر في المسلمين من لا يفهم اللغة حق الفهم ، ولم يتلق الدين عن أئمة العلم ، فكان المشتبه يسأل كبار العلماء فيجيبون بما تلقوا عن علماء الصحابة والتابعين من الجمع بين امرار النصوص وقبولها كما وردت وتنزيه الرب تعالى عن مشابهة الخلق في معناه عن الكيف .

وأخرج اللالكائي في السنة والبيهقي في الاسماء والصفات ان ربيعة (شيخ الامام مالك) سئل عن قوله (استوى على العرش) كيف استوى ؟ فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق . وأخرجا أن مالكا سئل هذا السؤال أيضاً فوجد وجدا شديدا وأخذته الرحضاء ، ولما سرّي عنه قال للسائل : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وإني أخاف أن تكون ضالا ، وأمر به فأخرج . وفي رواية انه قال « الرحمن على العرش استوى » كما وصف نفسه ، ولا يقال له كيف ، وكيف عنه مرفوع ، وأنت رجل سوء صاحب بدعة . اهـ كانه علم من حاله انه مشكك غير مستفت ليعلم

وذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره ان للناس في هذا المقام مقالات كثيرة وقال : وانما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح — مالك والاوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد واسحق بن راهويه — وغيرهم

من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو امرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل . والظاهر المتبادر الى أذهان المشبهين منفي عن الله فان الله لا يشبهه شيء من خلقه و «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» بل الامر كما قال الائمة — منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال: من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر . وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه . فمن أثبت ماوردت به الآثار الصريحة والاخبار الصحيحة ، على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفى عن الله النقائص فقد سلك سبيل الهدى اه

﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ هذا بيان مستأنف للتدبير. قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم يغشي بتشديد الشين من التغشية والباقون بتخفيفها من الاغشاء يقال غشي فلان أصحابه اذا أتاهم وغشي الشيء الشيء لحقه وغطاه، ومنه في التنزيل غشيان الموج واليم والدخان والعذاب للناس وغشيان الرجل للمرأة. أوغشاه وغشاه [illegible] ويغلب عليه أو يغطيه ويستره. وفي التشديد معنى المبالغة والتكرير. ومنه إغطاء الليل النهار وتغشيته وغشيانه إياه قال تعالى (والليل اذا يغشى) أي يغشى النهار ، وقال (والليل اذا يغشاها) والضمير للشمس أي يتبع ضوءها ويغلب على المكان الذي كان فيه. والمعنى هنا أن الله تعالى قد جعل الليل الذي هو الظلمة يغشى النهار وهو ضوء الشمس على الارض أي يتبعه ويغلب على المكان الذي كان فيه ويستره حالة كونه يطلبه حثيثاً من قولهم: فرس حثيث السير، ومضى حثيثاً — كما في الاساس وغيره — أي مسرعا والمعنى أنه يعقبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما شيء — كما قالوا — وهـذا الطلب السريع يظهر أكمل الظهور بما ثبت من كون الارض كروية الشكل تدور على محورها تحت الشمس فيكون نصفها مضيئاً بنورها دائما والنصف الآخر مظلما دائما. ومسألة الليل والنهار معلومة بالقطع وفي هذا العصر فيمكن تحديد ساعات الليل والنهار في كل قطر ومخاطبة أهله بالتلغراف بأن تسأل في نصف الليل من تعلم أن وقتهم نصف النهار، بل البرقيات تطوف كل يوم مدن العالم المدني في الشرق والغرب مبينة ذلك .

وقد اتفق علماء المعقول والفنون من المسلمين كالغزالي والرازي على كروية الارض

وظواهر النصوص أدل على هذا من مقابله كهذه الآية، وحكوا القول بدورانها على مركزها وأوردوا عليه نظريات تشكك في كونه قطعيا ولا تنقضه — كما في المواقف والمقاصد وغيرها — وقوله تعالى (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) أدل على استدارة الارض من هذه الآية و كذا على دوران الارض فان التكوير في اللغة هو اللف على المستدير كتكوير العمامة وهو اما أن يكون بدوران الشمس في فلكها الواسع حول الارض، واما باستدارة الارض حول الشمس ، وهو الذي قامت الدلائل الكثيرة في علم الهيئة على رجحانه

﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ الامر هنا عبارة عن التصرف والتدبير ومنه أولو الامر ، وأصله الامر المقابل للنهي توسع فيه ، أي وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونهن مذللات خاضعات لتصرفه منقادات لمشيئته ، فقد قرأ الجمهور هذه الكلمات بالنصب ، وقرأها ابن عامر بالرفع على أن الشمس مبتدأ باعتبار ما عطف عليها ومسخرات خبره ، ولا فرق بين القراءتين في المعنى المراد من التسخير بأمره إلا أن ظاهر قراءة الجمهور أن الشمس والقمر والنجوم غير المسخرات والأصل في العطف يقتضي المغايرة وسيأتي الكلام على ذلك في الكلام على التصرفات [illegible] في موضعه .

﴿ ألا له الخلق والامر ﴾ ألا أداة يفتتح بها القول الذي يهتم بشأنه ، لاجل تنبيه المخاطب لمضمونه وحمله على تأمله ، أي ألا ان لله الخلق فهو المالك لذوات المخلوقات ، وله الامر والتصرف والتدبير فيها فهو المالك والملك لاشريك له في مِلكه ولا في مُلكه ، وقد ذكرنا آنفا بعض الآيات الناطقة بتدبيره تعالى للامر ، عقب ذكر الاستواء على العرش. قال ابن عباس: هذا في الدنيا. وهذا التدبير منه ما يكون بما يأمر الله تعالى به الملائكة الذين عنى جماعة منهم بقوله (فالمدبرات أمراً) بما وكله اليهم من نظام العالم وسننه، ومنه الوحي ينزل به الملائكة على الرسل، ويشملهما قوله (الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن) وروي عن سفيان بن عيينة أنه قال: الخلق مادون العرش والامر ما فوق ذلك يعني أن التصرف بمحض ارادة الله وأمره للملائكة الذي يتنزل من العرش. وليس عندنا عن غيره من السلف شيء غير هذا في الآية.

وللصوفية ان عالم الخلق ما أوجده الله تعالى ابتداء بقوله « كن »

كالروح وأصل المادة والعنصر الاول لها (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال كن فيكون) أي عند نفخ الروح فيه . فجسمه مخلوق من سلالة من طين لازب ، وروحه من امر الله تعالى، والخلق في أصل اللغة التقدير وانما يكون في شيء يقع فيه واستعمل بمعنى الايجاد

﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ أي تعاظمت وتزايدت بركات الله رب العالمين كلهم ومدبر امورهم ، والجدير وحده بعبادتهم . فتبارك من مادة البركة وهي الخير الكثير الثابت ، فهي هنا تنبيه على ما في هذا العالم من الخيرات والنعم التي توجب له الشكر والعبادة على عباده دون ما عبدوه معه وليس لهم من الخلق ولا تدبيره شيء . وتكلمنا على مادة البركة في تفسير (٦ : ٩٣ وهذا كتاب انزلناه مبارك) فيراجع[1]

﴿ تنبيه ﴾ عني بعض المتكلمين المتقدمين بتكلف التوفيق بين ماورد من ذكر السموات السبع والكرسي والعرش في الافلاك التسعة في الهيئة الفلكية اليونانية، فزعموا أن السموات السبع هي الافلاك المركوزة بها زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد وأن الكرسي الذي ذكر في سورة البقرة هو الفلك الثامن التي ركزت فيه جميع النجوم الثوابت وأن العرش هو الفلك التاسع الذي وصفوه بالاطلس لانه ليس فيه شيء من النجوم. وهذه نظريات قد ثبت بطلانها عند علماء الفلك في هذا العصر فسقط كل ما بني عليها من تكلف ولم يبق حاجة الى الخوض في ذلك لرده، كما أنه لا حاجة الى تكلف حمل شيء من الآيات على مسائل العلوم والفنون المعتمدة في زماننا فان القرآن أرشد البشر الى العلم بتذكيرهم بآياته في الاكوان وترك ذلك لبحثهم واجتهادهم، وهداية الدين في ذلك أن يكون العلم بالكون وسننه وسيلة لتقوية الايمان ، وتكميل فطرة الانسان ولو اهتدى دول الافرنج بهدايته هذه لما جعلوا العلم وسيلة للقتل والتدمير ، وقهر القوي به للضعيف

(١) ص ٦١٩ ج ٧ تفسير

الخلافة الاسلامية

٥

٢٣ - كراهة غير المسلمين لحكومة الخلافة

قد يقول قائل : ان غير المسلمين في البلاد التي توصف بالاسلامية (نسبة الى السواد الاعظم من أهلها) يكرهون أن تؤسس حكومة الخلافة فيها ولا سيما النصارى الذين يرون أن ضعف النفوذ والتشريع والآداب والتقاليد الاسلامية في كل بلد اسلامي انما يكون بقوة نفوذ الافرنج وتشريعهم وآدابهم وتقاليدهم — وكذا لغاتهم — وبذلك تكون مقومات الامة ومشخصاتها أقرب الى النصرانية منها الى الاسلام ومن لم يؤمن بالعقيدة النصرانية والوصايا الانجيلية بمحبة الاعداء وكراهة الغنى وادارة الخد الايسر لمن يضربه على خده الايمن فانه قد يكون أشد استمساكا بالنصرانية الاجتماعية السياسية من أقوى المؤمنين بالانجيل اعتقادا، فتلك النصرانية المزورة التي تنسب اليها المدنية المادية الاوربية هي منار التعصب والكراهة لكل ما هو اسلامي لا نصرانية الانجيل الزاهدة المتواضعة الخاشعة ذات الايثار الذي يسمونه « انكار الذات »

واذا كان أمثالهم من متفرنجة المسلمين يكرهون الحكومة الدينية ويعارضون في احياء منصب الخلافة أفلا يكون متفرنجة النصارى أولى؟ واذا كان الامر كذلك فكيف نعود الى تجديد حكومة دينية يكرهها كثير من رعاياها وينفرون منها؟

الجواب عن هذا يحتاج الى تفصيل نكتفي بالضروري منه فنقول : اذا صح مايعزى الى من ذكر من أهل الوطن بمقتضى العاطفة وتأثير التربية، فان من يمحص الحقيقة وينظر اليها بعين المصلحة سواء كان منهم أو من غيرهم فهم يحكمون فيها حكما آخر

ان حكومة الخلافة اسلامية مدنية قائمة على أساس العدل والمساواة الا أن لغير المسلمين فيها من الحرية الشخصية ماليس المرتد والمنافق من المسلمين، فهؤلاء يريدون أن يكون الاسلام رابطة جنسية أدبية حرة بحيث يكون لهم في حكومته جميع حقوق المسلمين الشرعية والعرفية والقانونية وان

صرحوا بأنهم لا يدينون الله بالايمان بعقيدته ، ولا باقامة أركانه وشعائره، وهم يعلمون ان الحكومة الاسلامية لاتعطيهم شيئاً من ذلك، حتى ان المرأة اذا علمت من زوجها أنه ارتد عن الاسلام حرم عليها أن تقيم معه وتستمر على عصمته ، وأحكام المرتدين معروفة فأمرهم أغلظ من أمر الوثنيين دع الكتابيين الذين تحل ذبائحهم والتزوج بالمحصنات من نسائهم، ولا تعاقب الحكومة الاسلامية غير المسلمين على شيء يحل لهم في دينهم - وان لم يكن حلالا في الاسلام - الا ما فيه إيذاء لغيرهم ، بل لاتحاسبهم على شيء من أعمالهم الشخصية التي لاتضر المسلمين ولا غيرهم من رعيتها وان خالفت دينهم، ولكنها تحاسب المسلمين وتعاقبهم على المعاصي بالحدود وأنواع التعزير كالتوبيخ والحبس، وذلك ان من أصول الاسلام حفظ الآداب والفضائل ومنع الفواحش والمنكرات . وقد وصف الله المسلمين بقوله تعالى (الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) وقال فيهم (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) وأحكام الردة والحسبة في الاسلام معروفة

فعلم بهذا ان ملاحدة المسلمين وفساقهم المستهترين جدير أن يكونوا أشد كراهة لاقامة أحكام الشريعة من غير المسلمين لانها تكلفهم ما لا تكلف غيرهم وتؤاخذهم مالا تؤاخذه به . وقد اقترح بعض هؤلاء الملاحدة على جماعة المؤتمر السوري العام الذي عقد في دمشق أن يقرروا جعل الحكومة السورية غير دينية، ولا أذكر أن أحدا من الاعضاء النصارى وافق على الاقتراح بل صرح بعضهم برده كأكثر المسلمين. واقترح في ذلك المؤتمر أن تقيد مادة الحرية الشخصية من القانون الاساسي بقيد عدم الاخلال بالآداب العامة فرد هذا الاقتراح بعض هؤلاء الموصوفين بالمسلمين وصرح بعضهم بتعليل الرد بانه يترتب عليه أن يجوز للشرطة منع الرجل من الجلوس مع امرأة في ملهى من الملاهي أو مقهى من المقاهي العامة لمعاقرة الخمرة (؟؟) وقد كان رد هذا الاقتراح أقبح خزي صدر من ذلك المؤتمر وان علل الرد بعضهم بالاستغناء عن قيد الآداب العامة بقيد القوانين التي يمكن أن ينص فيها على ذلك القيد، وخدع بعض أهل الدين والادب بذلك وما كان ينبغي لهم أن يخدعوا ، بل أقول ان أكثر النصارى من أعضاء ذلك

المؤتمر كانوا أقرب الى المسلمين المستمسكين بأحكام الاسلام منهم الى المتفلتين من الدين ، وان كانوا يتقربون اليهم وينتصرون لهم فيما يوافق أهواءهم من مخالفة هداية الدين العامة

وقد ثبت بالتجارب أن غير المتدينين اذا اختلفوا لأسباب سياسية أو غيرها فانهم يكونون أشد عداوة وقسوة بعضهم على بعض من المتدينين بالفعل من الفريقين — فالمتدين وان شذ يكون أقرب الى الرحمة من المادي — واعتبر ذلك بما وقع من القسوة في هذه الحرب البلقانية العامة بين الاوربيين أنفسهم وبين من غلبت عليهم تربيتهم من الارمن والروم والترك

وأضرب مثلا آخر الدكتور يرتكاوس الرومي قال لجماعة من السوريين كانوا يظهرون الابتهاج والسرور بالدستور العثماني عقب اعلانه : ان حكم الشريعة الاسلامية خير لنا معشر النصارى من حكم الدستور الذي يسلبنا كثيراً مما أعطتنا الشريعة من الامتيازات ، ويحملنا ما أعفتنا من التكليفات . وأيد كلامه اشتداد العداء بين الترك وبين الروم والأرمن وغيرهما بعد الدستور الذي ترتب عليه سلب هؤلاء [illegible] بالشرع وحده

واني أعقب على هذا القول بأن أعجب ما يعجب به متفرنجة الترك من أحكام الشريعة هو ما أعطته من الحرية الواسعة لغير المسلمين في بلاد الاسلام ، ويرون انه لولاها لصارت هذه البلاد ملة واحدة كبلاد أوربة التي لم يكن فيها شيء من هذه الحرية ، ولاستراحت من العداوات والفتن التي أثارها عليهم نصارى الروملي والاناضول بدسائس أوربة حتى كانت سبب انحلال السلطنة العثمانية — هذا رأيهم ، ومن الغريب ان كثيرا من نصارى بلادنا المتفرنجين يوافقونهم على هذه النظرية ويقولون ياليت المسلمين أكرهوا اجدادنا على الاسلام في ازمنة الفتح والقوة ، اذاً كنا في اوطاننا امة واحدة ذات ملة واحدة فنسلم من شقاء هذا الشقاق والفتن المخربة للبلاد

لا مجال في هذا المقام لتحرير القول في هذه المسألة ، وليس من الصعب بيان خطأ من يظن أن معاملة نصارى الدولة بعدل الشريعة الاسلامية وحريتها هو الذي ألبهم عليها ولا اثبات ان الذي ألبهم ثم ثارهم هو جهل رجال الدولة وغفلتهم عن دسائس أوربة في هذه الشعوب وما بثوا في مدارسها وكنائسها ، وانما غرضنا

من ذكرها ان الشريعة الاسلامية خير للنصارى في بلاد اكثر اهلها مسلمون من حكومة مدنية لا يتقيد اهلها بأصول هذه الشريعة — كما كانوا في عهد الخلفاء من العرب — فان الفرق الحقيقي بين الحكومتين هو ان الاكثرية المسلمة لايحل لها ان تتبع هواها في التشريع الديني ولا في التنفيذ بما يعد ظلما للاقلية غير المسلمة لان الله تعالى حرم الظلم تحريماً مطلقاً لاهوادة فيه ولا عذر ، واوجب العدل إيجاباً مطلقاً عاما لامحاباة فيه ، وحذر تحذيراً خاصاً من ترك العدل في حالة الكراهة والبغض من اي فريق كان بقوله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لاتعدلوا. إعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) اي ولا يحملنكم بغض قوم لكم او بغضكم لهم — قال بعض المفسرين اي الكفار ، والصواب انه عام — على أن لاتعدلوا فيهم بل اعدلوا فيهم كغيرهم — وحذف المعمول دليل العموم — اي اعدلوا عدلا مطلقا عاما في المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والصديق والعدو ، الخ وقال في آية اخرى (ياايها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين ، ان يكن غنيا اوفقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلووا او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً) اي كونوا قائمين بالعدل في الاحكام وغيرها على اكمل وجه — كما تدل عليه صيغة المبالغة — شهداء لله في إثبات الحق ، وما كان لله لايميز فيه المؤمن نفسه ولا والديه واقرب الناس اليه على غيره ، لان هذا التمييز إيثار لنفسه اولقريبه على ربه الذي جعل الشهادة له سبحانه ، ولا يفرق فيه بين الغني والفقير بأن يحابي الغني طمعاً في نواله او الفقير رحمة به ، وقفى على هذا الامر بالنهي عن ضده وهو اتباع هوى النفس ، كراهة العدل وحظر اللي والتحريف للشهادة او الاعراض عنها او عن الحكم بالحق ، وتهدد فاعل ذلك وتوعده بأنه خبير بأمره لايخفى عليه منه شيء — دع ما ورد في الاحاديث النبوية من الوصية بأهل العهد والذمة خاصة ، ولولا ذلك لفعلت الحكومات الاسلامية القوية بالمخالفين لهم ما فعل غيرهم من إبادة بعض وإجلاء آخرين عن ديارهم أو إكراههم على الاسلام ، او سن قوانين استثنائية لقهرهم وإذلالهم ، وفي التاريخ العثماني ان السلطان سليمان استفتى شيخ الاسلام ابا السعود العمادي الدمشقي الاصل في اكراه النصارى على الاسلام او الجلاء فأبى ان يفتيه وبين له ان الشريعة

لا تبيح ذلك فأذعن، وكان يريد ان يفعل بهم كما فعلت الدولة الاسبانية بمسلمي الأندلس

وثم فرق آخر بين الشرع الاسلامي والاشتراع البشري الذي لا تتقيد حكومته بالدين هو في مصلحة غير المسلمين أيضا، وهو أن كل مسلم يعتقد أن الحكم الشرعي حكم الهي وان طاعته قربة وزلفى عند الله يثاب عليها في الآخرة، وعصيانه عصيان لله تعالى يعاقب عليه فيها، سواء حكم به الحاكم عليه أم لا، ولكن حكم الحاكم يرفع خلاف المذاهب، فتكون طاعته ضربة لازب. وهذا ضمان لغير المسلم الوازع فيه نفسي ولا ضمان مثله للمسلم من غيره.

(فان قيل) كل ذي دين يحاسب نفسه (أو ضميره) على ما يعتقده من حق عليه.

(قلنا) هذا عام مشترك وما نحن فيه أخص منه، وهو احترام الحكم الشرعي ووجوب طاعة الحاكم اذا حكم عليه سواء اعتقد صحته أم لم يعتقد— وان أمن عقاب الحكومة في التفصي منه بالحيلة

وجملة القول أنه ليس في الشريعة [illegible] على كراهتها وهي تساوي بين أضعف ذمي أو معاهد وبين الخليفة الأعظم في موقف القضاء وتقرير الحقوق، والشواهد على هذا في عصر الخلافة الراشدة وما بعدها متعددة.

واننا لنصرح بكل قوة بأن العدل العام المطلق لم يوجد الا في الاسلام

ولا نعرف لهم مطعنا في هذه المساواة الا مسألة رد شهادة غير المسلم على المسلم. وهي مسألة لا يقوم دليل على إطلاق القول فيها. بل لها مخرج من الكتاب والسنة واصول الشريعة. فقد قال تعالى في سورة المائدة وهي من آخر ما نزل من القرآن ليس فيها حكم منسوخ (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم) الآية — المتبادر الذى عليه جمهور السلف والخلف أن المراد بغيركم غير المخاطبين بالآية وهم المسلمون وخصه بعض العلماء بأهل الكتاب ولا دليل على هذا التخصيص، وقيده بعضهم بمثل الحالة التي نزلت فيها الآية بناء على أن الاصل في شهادة غير المسلم العدل أن ترد لقوله تعالى (وأشهدوا ذوي عدل منكم)

وقد بينا ضعف الاستدلال بهذه الآية على ماذكر في تفسير آية المائدة بتفصيل منه ان هذا في الامر بالاشهاد في مسألة المطلقات المعتدات من المسلمات لا في

الشهادة مطلقا ولا في كل اشهاد ، وقد قال تعالى في الاشهاد على الاموال (فاذا دفعتم اليهم أموالهم فأشهدوا عليهم) ولم يقيد هذا الاشهاد بالعدول من المؤمنين كما قيده في المسألة الخاصة بالنساء المسلمات ، وبينا ضعف حمل المطلق على المقيد في الآيتين مع اختلاف موضوعهما ، والفرق بين الاشهاد والشهادة ، كما بينا ضعف القول بأن غير المسلم لا يكون عدلا بدليل القرآن اذ جاء فيه (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وقوله (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك) كما بينا ضعفه بدليل سيرة البشر المعلومة بالاختبار والعقل وهو أنه لم توجد أمة من الامم جردت من الصدق والعدالة بحيث لا يصدق أحد من أهلها ، وبينا أيضاً سبب تفضيل الفقهاء المسلم على غيره في الشهادة من أربعة أوجه أهمها ما كان عليه المسلمون الاولون من التقوى والصدق وعدم المحاباة عملا بوصايا الدين التي تقدم بعض الآيات فيها آنفا ، وما اتفق عليه المؤرخون في مقابلة ذلك من غلبة فساد الاخلاق على الامم الاخرى التي فتح المسلمون بلادها

وفي أصول الشريعة مستند آخر لشهادة غير المسلم وهو دخولها في عموم البينة اذا ثبت عند القاضي [illegible] البينة في اللغة كل ما يتبين به الحق وقد فصل المحقق ابن القيم هذا المعنى في كتابه (إعلام الموقعين) ونشرنا ذلك في المنار وبينا انه يدخل في عموم البينة كل ما تجدد في هذا العصر من أنواع الجرائم كأثر خطوط الاصابع على الاشياء مثلا . ومن أراد التفصيل فعليه بالمنار وتفسيره

فلم يبق بعد هذا البيان على إجماله من عذر لغير المسلمين اذا كرهوا إحياء الشريعة الاسلامية العادلة لمحض التعصب الاعمى أو لتفضيل تشريع الاجانب على تشريع من يشاركهم في وطنهم . وليس من الحق ولا من العدل أن تكلف أمة ترك مقبة التشريع الفضلى ، ومثل هذه الحكومة المثلى ، إرضاء لفئة قليلة لا مصلحة لها في تركها وانما تكرهها لمحض التعصب على السواد الاعظم من أهل وطنها ، وناهيك بما تأرّث من الاضغان بين مسلمي الاناضول والروم والارمن الذين خرجوا على الترك في زمن محنتهم ، وساعدوا أعداءهم عليهم في حربهم ،

وموضوع الكلام في إقامة الخلافة في هذه البلاد التركية فاذا رضي الترك بذلك وعاملوا هؤلاء الجناة البغاة بعدل الشريعة ورحمتها فلا يعقل أن يكرهوا

ذلك أو يفضلوا عليه غيره إن كانوا يعقلون، وإنما أخشى أن يكون هذا الأمر مما ينفر كثيرا من الترك عن إقامة الشريعة التي تحرم أن يتبعوا الهوى في معاملة أقوام أولئك الجناة القساة الذين خربوا ديارهم بالنار والبارود وهم يرونها بأعينهم أكواما من الرماد والانقاض

وهذه حكومات جزيرة العرب إسلامية محضة ليس فيها قوانين وضعية ولا تشريع أوربي، وأقدمها حكومة أئمة اليمن وهنالك كثير من اليهود وهم راضون من حكومة الامامة الشرعية لم يشكوا منها ظلما ولا هضما، ولا يفضلون عليها حكومة أخرى؛ ولو سرى اليهم سم السياسة الاستعمارية من طريق التعليم أو غيره لافسدوهم على حكومتهم، وأثاروهم عليها لطلب وطن قومي لهم في البلاد. ولوعدم نافثو السم بالمساعدة على ذلك حبا في الانسانية أي حبا بإفساد الانسانية وإثارة البغضاء بين المختلفين في الدين والجنس والامة بعضهم على بعض ليتمكنوا هم من استعباد الجميع. (فاعتبروا يا أولي الأبصار)

٣٤ – الخلافة ودول الاستعمار

من البديهي[1] أن إقامة الخلافة الاسلامية يسوء رجال دول الاستعمار، وأنهم قد يقاومونها بكل ما أوتوا من حول وقوة، وأحرصهم على ذلك الدولة البريطانية، ولا أجهل ممن يظنون أنها كانت تسعى قبل الحرب لجعل الخلافة في الامة العربية، الا الذين يظنون اليوم أنها تود اليوم تأسيس دولة أو دول عربية ولو كانت تريد هذا من قبل لكان أقرب طرقه مساعدة أئمة اليمن المجاورين لها في منطقة عدن على الترك بالسلاح والمال لتنظيم جيشهم والاستيلاء على الحجاز، فان حكومة الامامة في اليمن قوية عادلة قديمة راسخة يرجع تاريخها الى القرن الثالث من الهجرة، وقد حاربتها الدولة العثمانية زهاء أربعة قرون لاسقاطها فعجزت عن ذلك، ولكن الحكومة البريطانية كانت لها بالمرصاد، وما زالت تكيد لها، وتسعى بالدسائس والفتن للتدخل في شؤونها، والتوسل بذلك للاستيلاء عليها، ولم تستطع ذلك ولن يجعل الله لها عليها سبيلا

(١) إننا نختار ما اختاره عليه المعقول من قدمائنا في النسبة الى البديهة والطبيعة والغريزة على ألفاظها كالسليقة الذي ثبت سماعا

وقد اشتهر لدى الخاص والعام أن الدولة البريطانية، كانت ظهيرة للخلافة العثمانية التركية ، وما ذلك الا لعلمها أنها صورية ، وانها هي التي تنتفع باظهار صداقتها، وكان رجال هذه الدولة الداهيـة أعلم الناس بأن هذه الدولة قد دب في جسمها الانحلال ، وأنها سائرة في طريق الفناء والزوال ، وانما كانوا يحاولون أن تبقى حصناً بين القيصرية الروسية المخيفة بسرعة تكونها ونموها وبين البحر الابيض المتوسط ، على شرط أن تكون قوة هذا الحصن بما وراءه من المساعدة البريطانية لا بنفسه . وقد بينا هذا في المنار من قبل ، وان الغازي احمد مختار باشا وافقنا على أن قاعدة الدولة البريطانية في السياسة العثمانية: ان لا تموت الدولة ولا تحيا، وبينا أيضاً أن هذه القاعدة قد تغيرت بما كان بين الدولتين البريطانية والروسية على مسائل الشرق، واقتسامهما بلاد ايران قبل الحرب، وانها تجنح الى إقامة خلافة عربية صورية تكون آلة بيدها الا بعد الحرب العامة والتمكن من خداع شريف مكة وتسخيره لمساعدتها ، ونحمد الله أن جعلنا من أسباب خيبة هذا السعي حتى [illegible]

قد عنيت الدولة البريطانية منذ أول من هذه الحرب بالبحث في مسألة الخلافة وطفق رجالها يستطلعون علماء المسلمين وزعماءهم في مصر والسودان والهند وغيرها آراءهم فيها ليكونوا على بصيرة فيما يريدونه من إبطال تأثير إعلان الخليفة العثماني الجهاد الديني بدعوى بطلان صحة خلافته من جهة وبدعوى أن هذه الحرب لا شأن للدين فيها من جهة اخرى ، وقد وجد من منافقي الهند من كتب لهم رسالة باللغة الانكليزية في ذلك وأرسلها الينا ناشرها لنترجمها بالعربية و ننشرها في المنار فعجبنا من جهله و نفاقه ، ولو لا المرقبة الشديدة على الصحف عامة والمنار خاصة في تلك الايام لرددنا عليها . وقد اطلعنا على ما كتبه بعض علماء مصر لهم في الخلافة وهو نقل عبارة شرح المقاصد وعبارات أخرى في معناها وعلمنا ان بعض العلماء كتب لهم بعض الحقائق فيها

وقد دارت بيننا وبين بعض رجالهم مناقشات في المسألة العربية اقتضت أن نكتب لهم مذكرات في تخطئة سياستهم فيها بينا في المذكرة الاولى منها التي قدمناها لهم في أوائل سنة ١٩١٥ أن أكثر مسلمي الارض متمسكون بالدولة العثمانية وخليفتها لانها أقوى الحكومات الاسلامية وانهم يخافون أن يزول

يزوالها كزالاسلام من الارض، وان هذا أعظم شأناً عندهم من بقاء المعاهد المقدسة سليمة مصونة. بل بينا لهم أيضاً أن اعلانها الجهاد شرعي وان سبب ضعف تأثيره في مثل مصر هو الاعتقاد بأنها منتصرة مع حلفائها فلا تحتاج الى مساعدة . . .

وعدت الى بحث الخلافة في آخر مذكرة منها وهي التي أرسلتها الى الوزير لويد جورج في منتصف سنة ١٩١٩ فقلت في بيان ما يرضي المسلمين من انكلترة «ان الوزير قد علم أن الاعتراف باستقلال الحجاز وتسمية أمير مكة ملكا لم يكن له ذلك التأثير الذي كان الانكليز يتوقعونه من قلوب المسلمين — ذلك بأن بلاد الحجاز أفقر البلاد الاسلامية وأضعفها في كل شيء، وهي موطن عبادة، لا ملك وسيادة ، ولم يكن المسلمون مضطربين من الخوف على المساجد المقدسة أن تهدم أو يمنع الناس من الصلاة فيها والحج اليها وزيارتها بل الاضطراب الاعظم على السلطة الاسلامية التي يعتقدون أن لا بقاء للاسلام بدونها، والحرص على بقائها ممزوج بدم كل مسلم وعصبه ، فهو لا يرى دينه باقياً الا بوجود دولة اسلامية مستقلة قوية قادرة بذاتها على تنفيذ أحكام شرعه بغير معارض ولا سيطرة اجنبية ، وهذا هو السبب في تعلق أكثر مسلمي الارض بعصبة دولة الترك واعتبارهم إياها هي الدولة الممثلة لخلافة النبوة، مع فقد سلاطينهم لما عدا القوة والاستقلال من شروطها الخاصة ، ولولا ذلك لاعترفوا بخلافة امام اليمن لشرف نسبه وعلمه بالشرع واستجماعه لغير ذلك من شروط الخلافة ، ذلك بأن الشروط تعد ثانوية بالنسبة الى اصل المطلوب ، مثال ذلك أن الحكومة المصرية تشترط في مستخدميها أن يكونوا مصريي الجنس عارفين باللغة العربية حاملين لشهادات مخصوصة — ولكنها عند ما تحتاج الى مستخدم في لعمل لا يوجد مصري يعرفه تترك اشتراط ذلك فيه لانه انما يقدم المستوفي للشروط على غيره اذا كان قادرا على أصل العمل المطلوب »

اه المراد هنا من مذكرتنا الى لويد جورج

وكان الغرض من هذا أن لا يغتروا بما يعلمون من عدم استجماع الخليفة التركي لشروط الخلافة ، ولا بما كانوا يرمون اليه من جعل شريف مكة خليفة

بعد اعترافه لهم بأن مكان الامة العربية من انكلترة مكان القاصر بالطفولية أو العته من الوصي ورضاه بحمايتهم له ولها ، وقد صرحنا للوزير في هذه المذكرة بأن الذي يرضي العالم الاسلامي من دولته ترك الشعوب الاسلامية العربية والتركية والفارسية أحرارا مستقلين في بلادهم وبقاء مسألة الخلافة على ما هي عليه الى ان يمكن تأليف مؤتمر اسلامي عام لحل مشكلتها، وقد بينا فيها ايضا أن هذه الدولة مستهدفة لعداوة الشرق كله بالتبع لعداوة العالم الاسلامي فلا يغرنها ضعف المسلمين وتفرقهم فتحتقر عداوتهم مع كونهم مئات الملايين فانهم لن يكونوا أضعف من « ميكروبات » الاوبئة. وسننشر هذه المذكرة في الوقت المناسب

لم يبال هذا الوزير بنصح هذه المذكرة فاستمر على سياسة القضاء على دولة الترك واستعباد العرب حتى خذله الله وخذله قومه وأسقطوا وزارته، ولكن بقي أشد أنصاره في الوزارة التي خلفتها وهو لورد كرزون الذي هو أشد تعصبا وعداوة للمسلمين منه فلذلك لم يتغير من سياسة الدولة شيء في المسألة الاسلامية الا ما اضطرت اليه من مجاملة الدولة التركية الجديدة بعد تنكيلها بالجيش اليوناني الذي أغرته وزارة لويد جورج بالقضاء على ما بقي للترك من القوة في الاناضول، فأثبتت بذلك أنها لا تدين الا للقوة، وأما الحق والعدل والوفاء بالعهود والوعود فلها في قاموس سياستها معان أخرى غير ما يعرفه سائر البشر في لغاتهم

٣٥ — الخلافة وتهمة الجامعة الاسلامية

ان السبب الاول لكون الدولة البريطانية هي الخصم الاكبر الاشد الاقوى من خصوم الخلافة الاسلامية هو أنها تخشى أن تتجدد بها حياة الاسلام وتتحقق فكرة الجامعة الاسلامية فيحول ذلك دون استعبادها للشرق كله. وقد نشرنا في مجلدات المنار أقوال الاكثيرة للساسة الاوروبيين في هذه المسألة من أهمها مانشرناه في المجلد العاشر سنة ١٣٢٥ من رأي كرومر في تقريره السنوي عن مصر والسودان سنة ١٩٠٦ فيها وأهمه قوله

« المقصود من الجامعة الاسلامية بوجه الاجمال اجتماع المسلمين في العالم كله على تحدي قوات الدول المسيحية ومقاومتها ، فاذا نظر اليها من هذا الوجه وجب على كل الامم الاوربية التي لها مصالح سياسية في الشرق أن تراقب

هذه الحركة مراقبة دقيقة لانها يمكن أن تؤدي الى حوادث متفرقة فتضرم فيها نيران التعصب الديني في جهات مختلفة من العالم ....»

ثم ذكر ان للجامعة الاسلامية معاني أخرى أهم من المعنى الاصلي وهي

(أولها) في مصر الخضوع للسلطان وترويج مقاصده .....

(وثانيها) استلزامها لتهييج الاحقاد الجنسية والدينية الا فيما ندر ....

(وثالثها) السعي في اصلاح أمر الاسلام على النهج الاسلامي (!!) وبعبارة أخرى السعي في القرن العشرين لاعادة مبادىء وضعت منذ ألف سنة هدى لهيئة اجتماعية في حالة الفطرة والسذاجة » وذكر أن عيب هذه المبادىء والسنن والشرائع هو المناقضة لآراء أهل هذا العصر في علاقة الرجال بالنساء وأمرا ثالثاً قال انه « أهم من ذلك كله وهو أفراغ القوانين المدنية والجنائية والملية في قالب واحد لا يقبل تغييراً ولا تحويراً (قال) وهذا ماوقف تقدم البلدان التي دان أهلها بدين الاسلام»

ثم قضى على تحذير الاوربيين من الجامعة الاسلامية وتحذيرهم من الجامعة الوطنية لئلا تتجلب بها الاولى التي هي أعظم الحركات المتقهقرة »

رددنا على لورد كرومر في كل هذه المسائل ردا شافيا ورد غيرنا عليه أيضاً، وفي هذه المباحث مافيها من تفنيد كلامه، وغرضنا هنا أن نبين شدة اهتمام الانكليز بمقاومة الجامعة الاسلامية بكل معنى من معانيها، وتحريضهم جميع الاوربيين وجميع النصارى عليها وعلى من يتصدى لها، وتخويف المسلمين منها

ولقد كان من إرهاب أوربة للشعوب الاسلامية وحكوماتها أن جعلتها تخاف وتحذر كل ما يكرهه الاوربيون منها وتظهر الرغبة في كل ما يدعونها اليه وجروا على ذلك حتى صار الكثيرون منهم يعتقدون ان مايستحسنه لهم هؤلاء الطامعون فيهم هو الحسن، وما يستقبحونه منهم هو القبيح، اذ تربوا على ذلك، ولم يجدوا أحداً يبين لهم الحقائق — وكان هذا عوناً لهم على سلب استقلال هؤلاء المخدوعين والمرهبين في بعض البلاد وغلبة نفوذهم على نفوذ الحكومة في بلاد أخرى كمصر والدولة العثمانية، واستحوذ الجبن والخور على رجال الحكومات في هذه البلاد حتى ان أركان الدولة العثمانية لم يتجرؤا على الاذن لنا بانشاء مدرسة اسلامية في عاصمتها باسم (دار الدعوة والارشاد) كما تقدم، ولم

يكونوا كلهم يجهلون ماذكرت بل قال لي شيخ الاسلام حسني أفندي رحمه الله تعالى : ان عندنا قاعدة مطردة في الافرنج هي أن كل مايرغبوننا فيه فهو ضارّ بنا وكل ما ينفروننا عنه فهو نافع لنا . وانما هو جبن بعض الرؤساء وفساد عقائد بعض . وما الجبن الاغشاوة من الوهم على عين البصيرة انقشعت عن ترك الاناضول ، فرأوا أنهم بعد انكسارهم في الحرب العامة ، وفقدهم لتلك الممالك الواسعة ، أعز وأقوى مما كانوا عليه منذ مائتي سنة ، إذ كانت البلاد فيها تنتقص من أطرافها ، ونفوذ الاجانب في عاصمة الدولة فوق نفوذ خليفتها وسلطانها.

لهذا السبب ينوط الرجاء بحكومة الاناضول ألوف الالوف من المسلمين أن تحيي منصب الخلافة وتجدد به مجد الاسلام وشريعته الغراء التي يرجى أن يتجدد باحيائها مجد الانسانية ، ويدخل البشر في عصر جديد ينجون به من مفاسد المدنية المادية ، التي تهدد العمران الاوربي بالزوال

أنا لا أتصور أن يكون الرعب من معارضة دول أوربة الاستعمارية هو الذي يمنع الترك من اقامة الخلافة الاسلامية ، فان هذا شكل حكومتنا ومقتضى ديننا ، وطالما صرحت هذه الدول بعد الحرب بأنها لا تفتات على المسلمين في أمر الخلافة . وأما الجامعة الاسلامية التي يخافونها فهي مسألة أخرى . ولكل دولة لها رعايا من المسلمين أن تسوسهم بالطريقة التي تراها أحفظ لمصلحتها، نعم لن يكون الافرنج هم الذين يمنعون إقامة الخلافة ولكن الذي يخشى أن يمنعها انما هم المتفرنجون دون غيرهم وقد شرحنا ذلك من قبل

من المعقول في السياسة أن يطعن المستعمرون للبلاد الاسلامية في جامعة دينية يظنون أنها قد تفضي الى انتقاض أهل هذه البلاد عليهم ، ويخافون أن تكون الخلافة الحق سببا لتحقق هذه الجامعة ، وأن يطعنوا في الشريعة الاسلامية وينفروا المسلمين منها لاجل ذلك ، كما يطعن فيها دعاة النصرانية لهذه العلة وللطمع في تنصير المسلمين ، وهذا الخوف من اقامة الخلافة يكون على أشده اذا كان الباعث على اقامتها السياسة المحضة التي ينتحل أصحابها كل عمل لاجل مصلحتهم ، وقد يكون دون ذلك اذا كان الباعث دينيا محضا وهو اقامة حكم الاسلام كما شرعه الله تعالى ، وليس من شروطها أن يتبعها جميع المسلمين ، ونحن نعلم أن هذا متعذر غير مستطاع في هذا الزمان ، وتكليف غير المستطاع

ممنوع في الاسلام (لايكلف الله نفسا الا وسعها) بل نحن نرى الرأي الغالب في بعض البلاد يأبى إحياء الخلافة حتى اننا نجتهد في اقناع الحكومة التركية الحاضرة به ونشك في قبولها ، فان زعيمها وصاحب النفوذ الاعلى في أقوى أحزابها يصرّح في خطبه بأن السلطة في هذه الحكومة للامة التي يمثلها المجلس الوطني الكبير بلا شرط ولا قيد وانه لا يمكن أن يكون لشخص معين نفوذ فيها مهما يكن لقبه — أي خليفة سمي أو سلطانا —

لما أذاع الاتحاديون عزمهم على انشاء مدرسة جامعة اسلامية في المدينة المنورة وابتداع سجل لطلاب الشفاعة النبوية فيها وقالت الجرائد وغير الجرائد أن مرادهم بذلك احياء الجامعة الاسلامية — كتبت مقالة في هذا الموضوع نشرتها في المجلد السابع عشر من المنار (سنة ١٣٣) قلت فيها نصه :

« وأما رأيي الذي أنصح به للدولة، فهو أن تصدي رجالها السياسيين لتحريك أوتار الجامعة الاسلامية يضر الدولة كثيرا ولا ينفعها الا قليلا ، ويوشك أن تكون هذه الاقوال التي قيلت في هذه المسألة — على قلة تأثيرها — من اسباب ما نراه من شدة تحامل أوربة عليها ، وا كتفي في هذا المقام بالمثل الذي يكرره الامام الغزالي « كن يهوديا صرفا والا فلا تلعب بالتوراة »

« ومرادي من هذا انه يجب عليها احد امرين :

(الاول) ان تؤسس حكومة اسلامية ، خالية من التقاليد والقوانين الافرنجية ، الا ما كان من النظام ، الذي يتفق مع الشرع ولا يختلف باختلاف الاقوام ، وتعطي مقام الخلافة حقه من احياء دعوة الاسلام ، واقامة الحدود وحرية اهل الاديان ، ولا يعجزها حينئذ أن ترضي غير المسلمين من رعاياها الذين ليس لهم اهواء سياسية ، ولا تسلم مع الدول الأجنبية ، بل يكون ارضاؤهم اسهل عليها منه الآن ان شاء الله . ولو كان لي رجاء في اصغائها الى هذا الرأي ، او جعله محل النظر والبحث ، لبينت ذلك بالتفصيل ، ولاوردت ما أعلمه من المشكلات والعقبات التي تعترض في طريق تنفيذه من داخلية وخارجية مع بيان المخرج منها ، ثم ما يترتب عليه من تجديد حياة الدولة وكونه هو المنجي لها من الخطر، وان تراءى لكثير من الناس أنه هو المسرع بالخطر، ظنا منهم أن أوربة تعجل بالاجهاز على الدولة اذا علمت أنها شرعت بنهضة اسلامية،

لعلمها بأن هذه هي حياتها الحقيقية ، وكون حياتها بهذا هو ما يصرح به بعض أحرار الاوربيين وان خوف منه بالتمويه والابهام أكثر السياسيين

(الثاني) أن تدع كل ما عدا الامور الرسمية المعهودة لديها من أمور الدين الى الجمعيات الدينية الحرة ، والافراد الذين يدفعهم استعدادهم الى هذه الخدمة ، ولها أن تساعد ما يستحق المساعدة من هذه الاعمال بالحماية ، وكذا بالاعانة المالية من أوقاف المسلمين الخيرية (اذا كانت تريد بقاء الاوقاف العامة في يدها ولم تجب طلاب الاصلاح الى جعل اوقاف كل ولاية في أيدي أهلها) مع بقائها بمعزل عن السياسة وأهلها . ولو لا أن هذا هو رأيي لما اشترطت على رجال الدولة وجمعية الاتحاد إذ عرضت عليهم مشروع الدعوة والارشاد أن يكون في يد جماعة حرة ، لا علاقة لها بالسياسة ، وأن لا تخصص لها اعانة من خزينة الدولة ، بل تكون نفقاتها مما تجمعه هي من الاعانات بأنواعها ومما تعطاه من أوقاف المسلمين الخيرية . (فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري الى الله ، إن الله بصير بالعباد) اه

هذا ما كتبناه في ذلك الوقت وقد شرحنا آراء الافرنج في الجامعة الاسلامية وما فيها من الاوهام وما ينبغي للمسلمين قرارا ، في مجلدات المنار

٣٦ ـ شهادة لوردين للشريعة الاسلامية

ما كل من يتكلم في الاسلام وشريعته من الافرنج يتكلم عن علم صحيح وما كل من لديه علم يقول ما يعتقد فان منهم من تنطقه السياسة بما تريه من مصلحة دولته ، ومنهم المتعصب الذي لا يبحث عن شيء من امر الاسلام الا ما يمكن الطعن فيه لتشكيك المسلمين في دينهم أو لتحريض أعدائهم عليهم . وقد وجد فيهم من قال الحق في الاسلام وشريعته في أحوال اقتضت ذلك

من هؤلاء لورد كرومر الذي طعن الشريعة تلك الطعنة النجلاء التي أقامت مصر وأقعدتها قد اضطر الى انصافها وتقييد ما أطلقه من الطعن فيها بما لا ينكره احد من عقلاء المسلمين ، كما أنصفها بكلمة قالها مرة للاستاذ الامام ونشرنا هذا وذاك في مجلد المنار العاشر إذ كان هو بمصر ، فقد قلت في سياق الرد على طعنته ان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى حدثني أنه كان يكلمه مرة في

مسألة اصلاح المحاكم الشرعية في إبان اهتمام الشعب والحكومة بها واعتراض بعض العلماء على اصلاحها ، فأقام له الدلائل على أن الاسلام يدعو الى كل اصلاح ، ويناسب كل زمان ، فقال له اللورد ما ترجمته :

« أتصدق يا استاذ أني أعتقد أن ديناً اوجد مدنية جديدة وقامت به دول عظيمة لا يكون اساسه العدل ؟ هذا محال ، ولكنني اعلم ان هذه المقاومات (اي لاصلاح المحاكم) امور (إكليركية) » اي تقاليد لرجال الدين الاسلامي كتقاليد الكنيسة عند النصارى

هذه الكلمة حملتني على ارسال كتاب الى اللورد هذا نصه :

القاهرة في ٢٠ ربيع الاول سنة ١٣٢٥

جناب اللورد المعظم

أحييك بما يليق بمكانتك ، وان لم يسبق لي شرف المعرفة لحضرتك ، وأرجو أن تمن علي ببضع دقائق من وقتك الثمين تجيبني فيها عن السؤال الآتي الذي يهمني من حيث أنا صاحب مجلة إصلاحية تدافع عن الدين وتبحث في فلسفته وهو :

هل عنيت بما قلت في تقريرك الاخير عن حكم بالطريقة الاسلامية « التي وضعت منذ أكثر من ألف سنة » الدين الاسلامي نفسه الذي هو عبارة عن القرآن الحكيم والسنة النبوية ؟ أم عنيت بذلك الفقه الاسلامي الذي وضعه الفقهاء ؟ فان كنت تعني الثاني فهو من وضع البشر وقد مزجت فيه آراؤهم بما يأخذونه عن الاول وخطأ فيه بعضهم بعضاً وقد ترك حكام المسلمين أنفسهم العمل بكثير منه ولطلاب الاصلاح من المسلمين انتقاد على كثير من تلك الآراء في كل مذهب . وان كنت تعني الاول فهذا العاجز مستعد لان يبين لجنابكم أن معظم ما جاء في الدين نفسه من الاحكام القضائية والسياسية هو من القواعد العامة — وهي توافق مصلحة البشر في كل زمان ومكان لان اساسها درء المفاسد وجلب المصالح بحكم الشورى — وما فيه من الاحكام الجزئية (وهو مقابل المعظم) راجع الى ذلك . وأختم رقيمي مودعا لجنابكم بالتحية والاحترام

منشيء المنار بمصر
محمد رشيد رضا

وقد أجابنا بالكتاب الآتي بنصه العربي موقعا ومؤرخا بخطه الافرنجي وهو

كتاب لورد كرومر الى صاحب المنار

حضرة صاحب الفضيلة العلامة الشيخ رشيد رضا صاحب جريد المنار

جوابا على خطابكم اقول أني عنيت بما كتبت بمجموع القوانين الاسلامية التي تسمونها الفقه لانها هي التي تجري عليها الاحكام ولم اعن الدين الاسلامي نفسه ولذلك قلت في هذا التقرير الاخير وفي غيره بوجوب مساعدة الحزب الاسلامي الذي يطلب الاصلاح ويسير مع المدنية من غير ان يمس اصول الدين . ولعل العبارة التي كتبتها بتقريري كانت موجزة فلم تؤد المراد تماما واقبلوا ياحضرة الاستاذ احترامي الفائق

في ٤ مايو سنة ١٩٠٧ كرومر

كلمة لورد كتشنر للسيد الزهراوي

زار السيد عبد الحميد الزهراوي عقب تعيينه عضوا في مجلس الاعيان العثماني مصر ونزل ضيفا عند صديقه صاحب المنار ، وزار لورد كتشنر العميد البريطاني في ذلك الوقت بايماز وكنت معه فكان مما قاله له اللورد باللغة العربية: [1] « ان الدولة العثمانية لا تصلح بالقوانين التي تقتبسها منا — معشر الاوربيين — ونحن ما صلحت لنا هذه القوانين الا بعد تربية تدريجية في عدة قرون كنا نغير فيها ونبدل بحسب اختلاف الاحوال ، وان عندكم شريعة عادلة موافقة لعقائدكم ولاحوالكم الاجتماعية ، فالواجب على الدولة ان تعمل بها وتترك قوانين اوربة فتقيم العدل وتحفظ الامن وتستغل بلادها الخصبة ، وعندي انها لا تصلح بغير هذا »

هذا الكلام حق وان جاز على قائله الجهل والخطأ فيا يظن انه لا يصلح لنا من قوانين اوربة ونحن نعلم ان كل ما لديهم من حق وعدل في ذلك فشريعتنا قد سبقت الى تقريره كما علم مما تقدم ولتفصيل ذلك مقام آخر

(١) نشرنا هذا في ص ٧٧ م ١٧ من المنار

أهل الصفة

(وأباطيل بعض المتصوفة فيهم وفي الاولياء وأصنافهم والدعاوى فيهم)

لشيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية قدس سره

تابع لما قبله

وقد غزا النبي صلى الله عليه وسلم غزوات متعددة وكان القتال منها في تسع مغاز مثل بدر ، وأحد ، والخندق ، وخيبر ، وحنين ، وانكسر المسلمون يوم أحد وانهزموا ثم عادوا يوم حنين ونصرهم الله ببدر وهم أذلة ، وحصروا في الخندق حتى دفع الله عنهم أولئك الاعداء وفي جميع المواطن (كان) يكون المؤمنون من أهل الصفة وغيرهم مع النبي صلى الله عليه وسلم لم يقاتلوا مع الكفار قط

ومما يظن هذا ويقوله من الضلال والمنافقين قسمان (قسم منافقون) وان أظهروا الاسلام وكان في بعضهم زهادة وعبادة يظنون أن الى الله طريقا غير الايمان بالرسول ومتابعته وان من أولياء الله من يستغني عن متابعة الرسول كاستغناء الخضر عن اتباع موسى وفي هؤلاء من يفضل شيخه أو عالمه أو ملكه على النبي صلى الله عليه وسلم اما تفضيلا مطلقا أو في بعض صفات الكمال وهؤلاء منافقون كفار يجب قتلهم بعد قيام الحجة عليهم فان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم الى جميع الثقلين انسهم وجنهم ، زهادهم وملوكهم وموسى عليه السلام انما بعث الى قومه لم يكن مبعوثا الى الخضر ولا كان يجب على الخضر اتباعه بل قال له اني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه ، وأنت على علم من الله تعالى علمكه الله لا أعلمه . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة » وقال الله تعالى (يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا الذي له ملك السموات والارض) وقال تعالى (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا

(والقسم الثاني) من يشاهد ربوبية الله تعالى لعباده التي عمت جميع البرايا ويظن أن دين الله الموافقة للقدر سواء كان ذلك في عبادة الاوثان واتخاذ الشركاء

والشفعاء من دونه وسواء كان فيه الايمان بكتبه ورسله والاعراض عنهم والكفر بهم. وهؤلاء يسوون بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الارض وبين المتقين والفجار، ويجعلون المسلمين كالمجرمين ويجعلون الايمان والتقوى والعمل الصالح بمنزلة الكفر والفسوق والعصيان وأهل الجنة كأهل النار وأولياء الله كأعداء الله، وربما جعلوا هذا من باب الرضا بالقضاء، وربما جعلوه التوحيد والحقيقة بناء على أنه توحيد الربوبية الذي يقر به المشركون وأنه الحقيقة الكونية. وهؤلاء يعبدون الله على حرف فان أصابهم خير اطمأنوا به وان أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة. وغايتهم يتوسعون في ذلك حتى يجعلوا قتال الكفار قتالا لله وحتى يجعلوا أعيان الكفار والفجار والأوثان من نفس الله وذاته، ويقولون ما في الوجود غيره ولا سواه، بمعنى أن المخلوق هو الخالق والمصنوع هو الصانع، وقد يقولون (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) ويقولون (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) إلى غير ذلك من الاقوال والافعال التي هي شر من مقالات اليهود والنصارى بل وهي من مقالات المشركين والمجوس وسائر الكفار من جنس مقالة فرعون والدجال ونحوهما ممن ينكر الصانع الخالق البارئ، رب العالمين أو يقولون إنه هو أو إنه حل فيه

وهؤلاء كفار بأصل الاسلام، وهو شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله، فان التوحيد الواجب أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا فلا نجعل له ندا في ألوهيته ولا شريكا ولا شفيعا. فأما توحيد الربوبية وهو الاقرار بأنه خالق كل شيء، فهذا قد قاله المشركون الذين قال الله فيهم (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) قال ابن عباس تسألهم من خلق السموات والارض؟ فيقولون «الله» وهم يعبدون غيره. وقال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون؟ سيقولون لله قل فأنى تسحرون)

فالكفار المشركون مقرون بأن الله خالق السموات والارض وليس في جميع الكفار من جعل لله شريكا مساويا له في ذاته وصفاته وأفعاله، هذا لم يقله أحد قط لا من المجوس الثنوية ولا من أهل التثليث ولا من الصابئة المشركين الذين يعبدون الكواكب والملائكة ولا من عباد الانبياء والصالحين ولا من عباد التماثيل والقبور وغيرهم فان جميع هؤلاء وان كانوا كفارا مشركين متنوعين في الشرك فهم يقرون بالرب الحق الذي ليس له مثل في ذاته وصفاته وجميع أفعاله ولكنهم مع هذا مشركون به في ألوهيته بأن يعبدوا معه آلهة أخرى يتخذونها شركاء أو شفعاء — أو في ربوبيته بان يجعلوا غيره رب الكائنات دونه مع اعترافهم بانه رب ذلك الرب وخالق ذلك الخالق

وقد أرسل الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب بالتوحيد الذي هو عبادة الله وحده لاشريك له كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون؟) وقال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) وقال تعالى (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم * وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون)

وقد قالت الرسل كلهم مثل نوح وهود وصالح وغيرهم (أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) فكل الرسل دعوا الى عبادة الله وحده لاشريك له والى طاعتهم والايمان بالرسل هو الاصل الثاني من أصلي الاسلام فمن لم يؤمن بأن هذا (١) رسول الله الى جميع العالمين وانه يجب على جميع الخلق متابعته وان الحلال ما أحله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه فهو كافر مثل هؤلاء المنافقين، ونحوهم من يجوز الخروج عن دينه وشريعته وطاعته اما عموما واما خصوصا ويجوز اعانة الكفار والفجار على افساد دينه وشرعته ويحتجون بما يفترونه أن اهل الصفة قاتلوه وانهم قالوا نحن مع الله من كان

(١) المناسب ان يقال : بان محمدا (ص)

مع الله كنا معه يريدون بذلك الحقيقة الكونية دون الامر والحقيقة الدينية ويحتج بمثل هذا من ينصر الكفار والفجار ويخفرهم بهمته وقلبه وتوجهه من ذوي الفقر، ويعتقدون مع هذا أنهم من أولياء الله وان الخروج عن الشريعة المحمدية سائغ لهم، وكل هذا ضلال وباطل وان كان لاصحابه زهد وعبادة فهم في العباد، مثل أوليائهم في الاجناد، فان المرء على دين خليله والمرء مع أحب هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم

وقد جعل الله المؤمنين بعضهم اولياء بعض والكافرين بعضهم أولياء بعض، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتال المارقين من الاسلام مع عبادتهم العظيمة الذين قال فيهم « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم فان في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة لئن أدركتهم لاقتلنهم قتل عاد » وهؤلاء قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لما خرجوا عن شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته وفارقوا جماعة المسلمين، فكيف بمن يعتقد أن المؤمنين كانوا أعوان النبي صلى الله عليه وسلم

ومثل هذا ما يرويه بعض هؤلاء المفترين ان اهل الصفة سمعوا ما خاطب الله به رسوله ليلة المعراج وان الله أمره أن لا يعلم به أحدا فلما أصبح وجدهم يتحدثون به فأنكر ذلك فقال الله له أنا أمرتك أن لا تعلم به احدا لكن أنا الله أعلمتهم. الى أمثال هذه الاكاذيب التي هي من اعظم الكفر وهي كذب واضح فان اهل الصفة لم يكونوا الا بالمدينة ولم يكن بمكة اهل صفة، والمعراج إنما كان من مكة كما قال سبحانه وتعالى (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله) ومما يشبه هذا من بعض الوجوه رواية بعضهم عن عمر رضي الله عنه انه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحدث هو وأبو بكر وكنت كالزنجي بينهما . وهذا من الافك المختلق، ثم إنهم مع هذا يجعلون عمر الذي سمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم وصديقه وهو أفضل الخلق بعد الصديق لم يفهم ذلك الكلام بل كان كالزنجي ويدعون أنهم هم سمعوه وعرفوه، ثم كل منهم يفسره بما يدعيه من الضلالات

الكفرية التي يزعم أنها علم الاسرار والحقائق إما الاتحاد وإما تعطيل الشرائع ونحو ذلك مثلا مايدعي النصيرية والاسماعيلية والقرمطية والباطنية الثنوية والحاكمية وغيرهم — من الضلالات المخالفة لدين الاسلام ماينسبونه الى علي بن أبي طالب أو جعفر الصادق أو غيرهما من أهل البيت كالبطاقة والهفت والجدول والجفر وملحمة بن عقب وغير ذلك من الاكاذيب المفتراة باتفاق جميع أهل المعرفة وكل هذا باطل، فانه لما كان لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم به اتصال النسب والقرابة، وللاولياء والصالحين منهم ومن غيرهم به اتصال الموالاة والمتابعة، صار كثير ممن يخالف دينه وشريعته وسنته يموه باطله ويزخرفه بما يفتريه على أهل بيته وأهل موالاته ومتابعته وصار كثير من الناس يغلو إمافي قوم من هؤلاء أو من هؤلاء حتى يتخذهم آلهة أو يقدم ما يضاف اليهم على شريعة النبي صلى الله عليه وسلم وسنته وحتى يخالف كتاب الله وسنة رسوله وما اتفق عليه السلف الطيب من أهل بيته ومن أهل الموالاة له والمتابعة جعلا كثيرا في أهل الضلال

(فصل) وأما تفضيل أهل الصفة على العشرة وغيرهم فخطأ وضلال بل خير هذه الامة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر كما تواتر ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب موقوفا ومرفوعا وكما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الامة وأئمة العلم والسنة وبعدهما عثمان وعلي وكذلك سائر أهل الشورى مثل طلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وهؤلاء مع أبي عبيدة بن الجراح أمين هذه الامة ومع سعيد بن زيد هم العشرة المشهود لهم بالجنة وقد قال الله تعالى في كتابه (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى) ففضل السابقين قبل فتح الحديبية الى الجهاد بأنفسهم وأموالهم على التابعين بعدهم وقال الله تعالى (لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة) وقال تعالى (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان)

وقد ثبت في فضل البدريين ما تميزوا به على غيرهم وهؤلاء الذين فضلهم

الله ورسوله فمنهم من هو من اهل الصفة، والعشرة لم يكن فيهم من هو من اهل الصفة الا سعد بن أبي وقاص فقد قيل انه اقام بالصفة مرة وأما اكابر المهاجرين والانصار مثل الخلفاء الاربعة ومثل سعد بن معاذ واسيد بن الحضير وعباد بن بشر وابي ايوب الانصاري ومعاذ بن جبل وابي بن كعب ونحوهم لم يكونوا من اهل الصفة بل عامة اهل الصفة انما كانوا من فقراء المهاجرين، والانصار كانوا في ديارهم ولم يكن احد ينذر لاهل الصفة ولا لغيرهم

﴿ فصل ﴾ واما سماع المكاء والتصدية وهو الاجتماع لسماع القصائد الربانية سواء كان بكف او بقضيب او بدف او كان مع ذلك شبابة فهذا لم يفعله احد من الصحابة لا من اهل الصفة ولا من غيرهم ولا من التابعين بل القرون الثلاثة المفضلة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم لم يكن فيهم أحد يجتمع على هذا السماع لا في الحجاز ولا في الشام ولا في اليمن ولا في العراق ولا مصر ولا خراسان ولا المغرب

وانما كان السماع الذين يجتمعون عليه سماع القرآن وهو الذي كان الصحابة من أهل الصفه وغيرهم يجتمعون عليه فكان أصحاب محمد اذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم يقرأ والباقي يستمعون وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أهل الصفة وفيهم قارىء يقرأ فجلس معهم، وكان عمر بن الخطاب يقول لابي موسى ياأبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون وكل من نقل أنهم كان لهم حاد ينشد القصائد الربانية بصلاح القلوب أو انهم لما أنشد بعض القصائد تواجدوا على ذلك أو انهم مزقوا ثيابهم أو أن قائدا أنشدهم

قد لسعت حية الهوى كبدي   فلا طبيب لها ولا راقي
الا الطبيب الذي شغفت به   فعنده رقيتي وترياقي

أو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قال «ان الفقراء يدخلون الجنة قبل الاغنياء بنصف يوم» أنشدوا شعرا وتواجدوا عليه فكل هذا وأمثاله كذب مفترى وكذب مختلق باتفاق أهل الآفاق من أهل العلم وأهل الايمان لا ينازع في ذلك

الا جاهل ضال وان كان قد ذكر في بعض الكتب شيء من ذلك فكله كذب باتفاق أهل العلم والايمان

(فصل) وأما قوله (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) فهي عامة فيمن تناوله هذا الوصف مثل الذين يصلون الفجر والعصر في جماعة فانهم يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه سواء كانوا من اهل الصفة أو غيرهم . أمر الله نبيه بالصبر مع عباد الله الصالحين الذين يريدون وجهه وأن لا تعدو عيناه عنهم (تريد زينة الحياة الدنيا) وهذه الآية في الكهف وهي سورة مكية وكذلك الآية التي هي في سورة الانعام (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين)

وقد روي أن هاتين الآيتين نزلتا في المؤمنين المستضعفين لما طلب المستكبرون أن يبعدهم النبي صلى الله عليه وسلم فنهاه الله تعالى عن طرد من يريد وجهه وان كان مستضعفا ثم أمره بالصبر معهم وكان ذلك قبل الهجرة الى المدينة وقبل وجود الصفة لكن هي متناولة لكل من كان بهذا الوصف من اهل الصفة وغيرهم

والمقصود بذلك أن يكون مع المؤمنين المتقين الذين هم اولياء الله وان كانوا فقراء ضعفاء ، فلا يتقدم أحد عند الله تعالى بسلطانه وماله ، ولا بذله وفقره ، وانما يتقدم عنده بالايمان والعمل الصالح ، فنهى الله سبحانه وتعالى أن يطاع(١) أهل الرئاسة والمال الذين يريدون ابعاد من كان ضعيفا أو فقيرا وأمره أن لا يطرد من كان منهم يريد وجهه وأن يصبر نفسه معهم في الجماعة التي أمر فيها بالاجتماع بهم كصلاة الفجر والعصر ولا يطيع أمر الغافلين عن ذكر الله المتبعين لاهوائهم

(لها بقية)

---

(١) لعل الاصل : فنهى الله سبحانه وتعالى نبيه ان يطيع الخ بدليل ماعطف عليه من قوله : وامره الخ

الخطاب

الذي خاطب به المحكمة الانكليزية العالم العلامة الاستاذ أبو الكلام

إني قد كنت عازما على أن لا أقدم الى المحكمة بياناما ، لانها مكان لا رجاء لنا فيه ، ولا طلب منه ، ولا شكوى اليه ، وإنما هي كمنعرج الطريق الى المنزل لابد من قطعه للسابل ، ولذا نقف فيه وقفة على كره منا ، والا لدخلنا السجن توا

إن الجمعية الوطنية وجمعية الخلافة وجمعية العلماء قد أبحن تقديم بيان الى المحاكم ، لا للدفاع بل لاعلام الامة بالحقيقة ، بيد أني ما برحت أشير على الناس بان يؤثروا الصمت على الكلام ، وأن يقاطعوا المحاكم مقاطعة تامة . وذلك لاني أرى أن كل من يقدم بيانا لمحض التهمة وكشف الحق — وإن كان قصده به اعلام الجمهور — لا يسلم من الظنة ، اذ يجوز أن يكون في نفسه أدنى هوى للتخلص من العقاب ، أو في أعماق قلبه أقل رجاء في عدل المحاكم . مع أن سبيل « تارك التعاون » مستقيم نير ، لا ينبغي أن توسخه الظنون والشبهات .

اليأس التام من العدل

إن « اللاتعاون » نتيجة اليأس التام من الحالة الحاضرة ، وهذا اليأس هو الذي ألجأ الامة الى أن تغيرها ، وتتبدل غيرها بها ، فكأن من يقاطع الحكومة ويأبى معاونتها ، يعلن بانه يئس من عدلها وحبها للحق ، وأنه لا يعترف بها بل يعدها حكومة غاصبة جائرة وغير شرعية ، ولهذا يود إسقاطها وتحطيمها . أفبعد هذا يرجع القهقرى فينتظر منها أن تنصفه كحكومة عادلة صالحة للبقاء والدوام ؟

وان غضضنا الطرف عن هذه الحقيقة الثابتة ، فان السعي للتبرئة من التهمة ليس الا فعلا عبثا وانكاراً للحقائق . اذ كل بصير يعلم أنه لا رجاء في المحاكم أن تنصف وتعدل في الحالة الحاضرة ، لا لان رجالها لا يحبون العدل ، بل لانها سائرة على نظام لا يستطيع معه حاكم أن ينصف أولئك الذين لا تريد الحكومة نفسها أن تنصفهم

واني ههنا أصرح بان خطاب « اللاتعاون » ليس مع الافراد والآحاد ، بل مع الحكومة ونظامها ومبادئها

موقف أصحاب الحق أمام المحاكم والقضاة :

إن هذه الحالة مثل سائر حالات عصرنا ليست بجديدة ، فالتاريخ شاهد على أنه كلما طغت القوات الحاكمة ورفعت السلاح في وجه الحرية والحق ، كانت المحاكم آلات مسخرة بأيديها تفتك بها كيف تشاء ، وليس هذا بعجيب ، فان المحاكم تملك قوة قضائية ، وتلك القوة يمكن استعمالها في العدل والظلم على سواء ، فهي في يد الحكومة العادلة أعظم وسيلة لاقامة العدل والحق . وبيد الحكومات الجائرة أفظع آلة للانتقام والجور ومقاومة الحق والاصلاح

والتاريخ يدلنا على ان قاعات المحاكم كانت مسارح للفظاعة والظلم بعد ميادين القتال ، فكما أريقت الدماء البريئة في ساحات الحروب ، حوكمت النفوس الزكية في قاعات المحاكم وحكم عليها بالموت والقت في غياهب السجون . وليس هنالك طبقة فاضلة محبة للحق من الانبياء والحكماء والعلماء والصالحين ، إلا ونراها واقفة كالجناة والمجرمين في قاعات المحاكم امام القضاة .

نعم ان كر الايام ومر العشي قد محا كثيراً من مساوىء العهد القديم . فلا يوجد الآن شيء من المحاكم الرومية للقرن الثاني المسيحي . ولا جمعيات التفتيش السرية (Jnquisiton) التي كانت في القرون المتوسطة . ولكني لا استطيع الاعتراف بان عصرنا هذا قد نجا من تلك العوامل النفسية التي كانت تعمل في تلك المحاكم — حقا ان تلك الابنية التي كانت مكامن للاسرار الرهيبة قد دكت دكا . ولكن من ذا الذي يقدر ان يقلب تلك القلوب التي تكمن فيها الاسرار المخيفة لحب الذات والظلم ؟

مقام عجيب ولكنه عظيم !

ان جدول مظالم المحاكم وفظائعها طويل عريض - تلك المظالم التي لم يفرغ

التاريخ الى الآن من البكاء منها ـ فنرى فيه اسم المسيح (ص) الانسان الكامل الذي اوقف مع اللصوص في محكمة اجنبية . وسقراط الحكيم الذي اضطر الى شرب كأس السم ، لانه كان اصدق رجل في بلاده . وكذا غلورنس غيليلو الذي لم يكذب مشاهداته العلمية لانها كانت جناية في عين القضاة والحاكم — وصفت المسيح بالانسان الكامل لاني اعتقد انه انسان . ولكن الملايين من الناس يعتقدون انه فوق هذا — اذن ما اعجب قفص الجناة ! وما اعظم شأنه ! إنه موقف الصنفين معاً : الابرار والاشرار ! حتى انه كان لائقا بهذا الوجود العظيم !

حمداً وشكراً

واني اذ أتدبر التاريخ العظيم لهذا الموقف ، وأراني قد شرفت بالوقوف فيه ، يسبح روحي بحمد الله ويلهج لساني بشكره من غير قصد مني ، وهو وحده يعلم ما أجده من الجذل والابتهاج ، اذ أحسبني في هذا القفص محسوداً للملوك والسلاطين العظام الذين هم في قصورهم [illegible] والراحة التي يرقص لها قلبي في صدري ، وياليت الانسان العاقل والعالم كله على هواه ، يشعر بنفحة منها ! واني أقول حقا إنه لو أدركها الناس لتمنوا المثول في هذا المكان ، ولنذروا النذور لاجله !

لم أخاطب المحكمة ؟

إني كنت عازما على السكوت في المحكمة ولما أحضرت فيها ورأيت الحكومة تقدم في اثبات جريمتي الخطبتين اللتين ألقيتا في بعض مجامع (كلكتا) وهما لا يحتويان على جميع الامور التي ما زلت أكررها في جميع خطبي ورسائلي ومقالاتي التي تعدو الحصر ، واني ان قدمت كانت اقنع لمقصدها — علمت أنها عاجزة حتى عن تهيئة ذلك المستند الذي يعتبر في هذه الايام كافيا لانزال العقاب . مع شدة رغبتها وحرصها على سجني — فغيرت قصدي وقلت ان العلة التي كانت مانعة من الكلام أصبحت موجبة له . فأردت أن أثبت بلساني

الامر الذي لا تستطيع الحكومة اثباته مع علمها به وشدة رغبتها في اثباته — واني أعلم ان قوانين المحاكم لا توجه علي ، ولا تضطرني الى الاعتراف به من تلقاء نفسي، ولكن قانون الحقيقة فوق هذه القوانين الوضعية . وهو الذي يسوقني الى ما سأقوله. اذ ليس من الحق أن تذر شيئا مستورا. لان الخصم لا يستطيع اثباته

الاعتراف بالجناية

ان الاستبداد التي ابتليت به الهند نوع من ذلك الاستبداد الذي يصيب الامر في طور ضعفها ووهنها. وهو من طبعه يبغض الحركة الوطنية والحرية والمطالبة بالحقوق بغضاً شديداً. لانه يعلم أنها اذا نجحت سقطت قوته الظالمة وامحى وجوده الفاحش . وما من وجود يحب سقوط نفسه وزواله مهما يكن زواله ضروريا في عين الحق والانصاف . فالتدافع بين الحرية والاستبداد «تنازع البقاء» و«تزاحم في الحياة» كل من الفريقين مجد ويكد للفوز والبقاء : الامة تريد أن تنال حقها المغصوب ، والاستبداد يأبى عليها ذلك ويريد الاحتفاظ بمقامه ، ولا تثريب عليه ، لانه — وان كان وجوده خلاف الحق — يدافع عن نفسه وحياته ، وليس لنا أن ننكر مقتضيات الطبيعة ، فكما يسعى الخير لبقائه ، يسعى الشر أيضاً، ومهما يكن ملوما في نفسه لا يلام على رغبته في الحياة

وقد بدأ التزاحم في الهند بين هاتين القوتين: الحرية والاستبداد — فليس ببدع أن تكون الحرية والمطالبة بالحقوق جناية في عين الاستبداد . وأن يكون محاربو وجوده الباطل جناة وأثمة وأهلا العقاب الشديد — فادام الامر كذلك فاني أعلن على مسمع من المحكمة والحكومة باني أنا قد ارتكبت هذه الجناية ارتكابا واقترفتها اقترافا . وان كانت الحكومة لا تعلم — وهي لتعلم — فلتعلم الآن أني من اولئك الجناة الذين بذروا بذور هذه الجناية في قلوب أمتهم . ووقفوا حياتهم على سقيها وتنميتها وتثميرها . بل اني ولا فخر — أول مسلم في الهند دعا أمته من اثني عشرة سنة الى هذه الجناية دعوة عامة ، وحول وجهتها في خلال ثلاث سنوات عن العبودية التي كانت الحكومة زينتها لها الى الحرية

التي قد أشرقت شمسها الآن ولن تنكسف أبداً . فان كنت آثماً في زعمها فلتعاقبني بما تشاء . فها أنا ذا معترف بالجناية بصدر رحب ولسان طلق غير جزع منها ولا نادم عليها . لأن هذا ما كنت أتوقعه وأعرفه من قبل !

واني لا أنتظر من الحكومة إلا الغلظة والقسوة لأني وان ألفيتها تدعي العصمة من الخطأ والزلل ولا تعترف بذنوبها . أعلم أنها ما ادعت أبداً أنها مثل المسيح في لينه وحنانه . فاذن كيف أنتظر منها أن تقبل أعداءها وتحبهم كأصدقائها ؟ واعلم أنها لا تعاملهم الا بتلك المعاملة التي نراها منها الآن . والتي ما زال الاستبداد يختارها لمحق الحرية والحق وخنق أصحابه وحماته ـ فالشدة والغلظة من الحكومة شيء طبيعي لا ينبغي لنا أن نشكو أو نعجب منه . بل على كل من الحزبين أن يعملا على مكانتهما حتى يفصل الله بينهما وهو خير الفاصلين

(ثم قال بعد هذا إنه لم يقبض عليه لأجل الخطبتين اللتين قدمنا في المحكمة بل ليخلو للحكومة [illegible] الكثرة عند قدومه اليها . وتقمعت الحركة [illegible] ثم ذكر أشد ما في الخطبتين وهو ما يلي):

أشد ما في الخطبتين

ان الحكومة التي تأسست على الظلم لظالمة وهي إما أن تتوب من ذنوبها وفظائعها وتخضع للحق وأما أن تزول من الوجود ! »

أيها الناس ! ان كنتم تتألمون لاخوانكم الذين قبض عليهم فعلى كل منكم أن يبت في نفسه الآن : هل هو راض بأن تظل هذه الحكومة قائمة في بلادنا كما كانت عند القبض على اخواننا ؟

اذا كنتم تريدون تحرير بلادكم من رق العبودية فطريقته واحدة وهي أن لا تدعوا فرصة لاعدائكم الماكرين لاستعمال أسلحتهم القتالة التي عندهم بغير حساب . . .

إن بعض الناس يظن أن الخطيب اذا فاه بمثل هذه الاقوال يحتاط لنفسه ، والا فانه بالحقيقة لا يقصد بها شيئا ، ولكني أيها الاخوان أعتقد أنه ليس فيكم أحد يحسب أولئك الذين يتعبون لاجلكم خوافين من السجن أو الاعتقال ، أو مخاصين لهذه الحكومة الظالمة في نفسها وقوتها بقولهم ان أعمالنا يجب أن تكون بالامن والنظام — لا ، لا ، ان هذا لا يتصور أبداً ، بل الحق الذي لامراء فيه أنهم يقولون ذلك لانهم يرون نجاحكم متوقفا على الامن والنظام اذ أنتم لا تملكون تلك الآلات الجهنمية التي تتسلح بها هذه الحكومة ، وانما الاسلحه التي لديكم هي الايمان والضمير وقوة التضحية — فاستعملوها في وجهها تنجحون ، ، والا فلا نجاح لكم بالاسلحة المادية »

أيها الناس ! ان كنتم تريدون أن تعرقلوا الحكومة برهة من الزمان فطرقه كثيرة ، ولو كنت لا سمح الله من المحبين للحكومة لبحث بها ودعوتكم اليها ولكن الذي أريده منكم هو [illegible] التي لا تنتهي في يوم واحد بل تمتد الى يوم الفصل ، وما أدراكم ما يوم الفصل ! يوم الذي إما أن تمحى فيه هذه الحكومة الجائرة وإما ان تفني ثلاثمائة مليون من النفوس البشرية !

الاعتراف فوق الاعتراف

ان كانت هذه التصريحات (جناية) فانى معترف أن قلبي قد اشتغل بها ولساني نطق بها وانى أنا الذى صرحت بها أمام عشرات الالوف من الناس ، ليس في هاتين الخطبتين فقط بل في خطب أكثر من أن تعد وتحصى ، بل ما برحت أقول أكبر وأشد منها، ذلك بأنى أعتقد أن الصدع بها واجب علي ولن يمنعنى من أداء الواجب كونه معاقبا عليه بقانون ١٢٤ من القوانين الهندية (١) بل انى لاجدني الآن مدفوعا الى التصريح بها أمام المحكمة ولا أزال قائلا بها

(١) أن مادة ١٢٤ هذه مثل المادة ١٥١ من القوانين المصرية الخاصة بالذين يحرضون على كراهية الحكومة باي واسطة من وسائط النشر أو الصور أو الكلام أو الخطابة الخ (المترجم)

مادام لساني بين أسناني ، وروحي في جثماني – وإن لم أفعل ذلك أكن ظالما لنفسي وعاصيا عند الله وعند الناس أجمعين !

الحكومة الحاضرة « ظالمة ! »

نعم أني قلت « ان الحكومة الحاضرة ظالمة » وان لم أقل هـذا فماذا اقول يا ترى ؟ وأيم الله اني لاعجب كيف يطلب مني أن أسمي شيئا بغير اسمه وأن أدعو الاسود بالا بيض ؟

ان ما قلته هو اهون ما يجب ان يقال في هـذا الباب ، اذ لا اعلم حقيقة ملفوظة اخف منه

لا ريب أني ما زلت اقول انه ليس الا ان تتوب الحكومة من آثامها وتغير خطتها وترجع عن ظلمها فان لم تستطعه فبعدا لها وسحقا ! وليت شعري ماذا يقال غير هذا ؟ الشر اما ان يصلح واما ان يزول ، وهل بينهما طريق آخر ؟ ان هذه الحقيقة قديمة العهد [illegible] لا يصلحها [illegible] الا الجبال والبحار واني ما دمت اعتقد ان هذه الحكومة من اولها الى آخرها شر على شر فكيف استطيع ان ادعو لها واقول : دومي ولا تصلحي

لماذا أعتقد هذا ؟

لماذا اعتقده انا وملايين من ابناء وطني واخوان ديني ؟ الجواب اصبح الآن واضحا جليا حتى يصح ان يعبر عنه بقول الشاعر الانجليزي (ملتون) : انه بعد الشمس اوضح شيء ، واجلى محسوس . على اني اصرح هنا بأني اعتقد ذلك لاني هندي ولأني مسلم ولأني انسان

الحكم الشخصي ظلم بالذات

اني أعتقد أن الحرية حق طبيعي لكل انسان ولكل أمة ، فطرة الله التي فطر الناس عليها – وليس لشخص أو حكومة أن تستعبد عباد الله وتتخذهم خولا – وسم الاستعباد والرق بأي اسم شئت ، غير أنه على كل حال استعباد ورق ،

ومشيئة الله وناموسه بمقته وينفيه ، وإني لاجله لا أعرف الحكومة الهندية المتمدية، بل أعدها حكومة غير شرعية ، لانها مستبدة طاغية ، استعبدت البلاد وقهرت العباد ، ودست الشرائع وخانت المواثيق ، ليسخطها الشعب ويمجها الحق ، فهي معدومة في نظر الامة وان كانت موجودة بقوة السلاح ، وأرى واجباتي الدينية والوطنية والانسانية تطالبني بأن أحرر بني جلدتي من رقها وعبوديتها الشائنة .

ولا يقاطع كلامي « بالاصلاحات الادارية » و« الترقي التدريجي » كلمات خطتها الحكومة وزخرفتها لتخادع به الله والحق — أما أنا فلا أخدع بها ، إذ الحرية في اعتقادي حق طبيعي للانسان ، وليس لاحد أن يحدد ويقسم في تأدية الحقوق ، وان مثل الذي يقول ان [illegible] تدريجيا كمثل الذي يقول للدائن يرد اليك الدين قسطا قسطا ، نعم ان لم يستطع أخذه دفعة واحدة يضطر الى قبوله بالاقساط ، ولكن لا يسقط به حق الاخذ مرة واحدة

« الاصلاحات » وما هي « الاصلاحات » ؟ وان هي الا كما قال الفيلسوف الروسي تولستوي : ان أبيح المسجونين انتخاب سجانهم بالاصوات ، فانهم لا يصيرون به أحرارا »

الحكومة الحاضرة حسنة أو قبيحة ؟ سؤال ثانوي ، أما السؤال الاساسي فهو : هل وجودها حق وشرعي ؟ فاني أعتقد ان مثل هذه الحكومة الاجنبية المتسلطة ، باعتبار أصل خلقتها غير شرعية ، لان نفس وجودها ظلم وشر ، فهي لو لم ترتكب جميع تلك الفظائع التي ارتكبتها بهذه الكثرة ، لكانت في اعتقادي ظالمة وجائرة ، ويكفي لقبحها وشناعتها أنها موجودة — نعم نعترف بحسناتها ان كانت لها حسنات ، ولكن يظل وجودها على كل حال ظلما وغير شرعي — ومثاله أن لو تسلط أحد على بيتنا وأدارها إدارة حسنة وعمل أعمالا صالحة ، فانه بهذه الحسنات لا يصير تسلطه حقا وشرعيا

ان الشر يصح أن ينعت ويقسم بالكم والكيف ، فنقول « كم هو وكيف

هو ؟ » ولكن لا يصح نعته وتقسيمه بالحسن والقبيح ، فلا تقول « أحسنٌ هو أم قبيح ؟ » ثم يقال « سرقة قبيحة » و « سرقة أقبح » ولكن لا يقال « سرقة حسنة » و « سرقة قبيحة » وهكذا الاستبداد ، فاني لا أستطيع أن أتصوره حسنا وشرعيا في حال من الاحوال ، لانه بذاته ووجوده قبيح وشر وغير شرعي نعم ربما يوجد نوع من الاستبداد أخف وطأة وأقل ظلما وأكثر ليناً من غيره ، ولكن الاستبداد الذي دهم الهند لم يقف عند وجه الخلقي ، بل ما زال يكتسب السيئات فوق السيئات ، والمنكرات تلو المنكرات ، ظلمات بعضها فوق بعض ، فاذن كيف لا يعلن ظلمه ولا يشهر قبحه ، ولا يشدد النكير عليه ! الكلام بقية



﴿ انتداب العرب في سويسرة ﴾

[illegible]

٣

آثار العرب في سويسرة

لم تزل للعرب آثار كثيرة في سويسرة منها برج السارازين (لا يخفى أن لفظة ساراز ين كان يطلقها الافرنج على المسلمين في القرون الوسطى واختلفوا كثيرا في أصل هذه الكلمة وكيفية اشتقاقها وقرأت في رحلة ابن بطوطة أن الملك الرومي الذي كان في القسطنطينية سأله هل أنت سرا كنوا ؟ قال وهذا اللفظ معناه المسلم بلغتهم) وهو برج بقرب بلدة فيفاي بجوار (مونترو) من مقاطعة (لوزان). ومما ينسب اليهم مغارة وكهف في جهات لوستس

وقال بعض المؤرخين ممن نقل عنه كلر . من المحقق أن عصائب العرب زحفت الى (الجورة) وبحيرة جنيف وانه لم يوجد من مؤرخينا من يذكر دخولهم

الى روراسيه) وكانت كتبنا صامتة عن ذلك — فالتواتر ورواية الاخلاف عن الاسلاف متصلة بالسند تقومان مقام ذلك ، وكثيرمن أسماء هذه البلاد تدل على وقوع هذه الغزاة

وعلى نصف ساعة من دقليه في الجبل من جهة الشمال الغربي على مقربة من الطريق الروماني المؤدي من دليون الى آجوا يوجد مضيق بين جندلين اسمه كهف (السارازين) . وشيوخ دقليه يروون عن آبائهم واجدادهم خلفا عن سلف أن هذا المكان كانت أقامت فيه شرذمة من (السارازين) كانوا يوردون جمالهم (يظهر أنه أينما تكون العرب تكون الجمال ولو في قلب أوربا) ماء سورن بقرب كورنتل — وهذا اسم طريق روماني مهجور الآن ثم على أحد صخور غار السارازين عدد ٢٣ منقور نقرا غريبا بأرقام عربية ولا يعرف السبب في نقر هذا العدد خاصة لانقطاع سند التواتر وعدم وجود تاريخ لذلك وانما المعروف أن العرب كانوا مقيمين هناك دركا . ثم انه بقرب روسيمزون تجاه جبل شبوث يوجد طريق اسمه طريق السارازين

ثم انه يوجد في بلاد البايموت ووادي ساس في الجبل طريقان أحدهما يمر من فوركتال مخترقا ممر أنترونه والثاني يمر من موشومورو أي جبل المورو — وهو المسلم المغربي في عرف الافرنج — وكل من المضيقين كان الى سنة ١٤٤٠ يقال له الممر القديم ويقول فرديناند كلر نقلا عن المؤرخين انه مما لايجوز أن ننساه أن المعاهدة التي عقدها الملك هوغ كونت بروفانس مع العرب كان من جملة شروطها سد جميع المضايق والثنايا الا ثنية سان برنار فقط ، فلذلك ترى هناك محلا اسمه « الماجل » وهو بدون شك محطة بريدية ، ونجد في وادي ساس مكانا يسمى « ألالاين » وهو « العين » وهناك ماء على الطريق في أعلى الوادي كما أن في شرقي الوادي عين ماء اسمها Eicnapl أي عين الالب

وفي غربي وادي ساس محل اسمه ميشابل وهو حسبما يظن الاستاذ هيتسيغ محرف عن « مشبل » أي اللبوة التي معها اشبالها بدليل أن هناك غربي

مرسيميلون جبلا اسمه جبل الاسد . ونحن نظن أن الاسم هو مشابل كما يلفظونه الآن لامشبل ، وهو جمع مشبل اسم مكان كقولك مأسدة ، أو هو مشابيل جمع مشبول ، ومكان مشبول كثير الاشبال

ومن أكثر الاشياء في تلك الجهات التي جال فيها العرب اسم « مورو » الذي هو كما تقدم اسم المغربي عند الافرنج لان الرومان كانوا يسمون المغرب الاقصى « موريتانيه » فمن ذلك جبل مورو الذي عند فراكسينة وعليه قصر من آثار العرب ويوجد ممر اسمه مورو باس في ناحية ماكوغناغه في البامول . كذلك في واد يقال له وادي انزا (ولعله وادي العنزة) محل يقال له « سبا دلموروه » أي قمة المغربي وهو الى الشمال من بريسيون وفي جبل سان برناردو في الدير الشهير قمة شاهقة اسمها موتمور

وما عليه اسم « سارازين » شيء لا يكاد يحصى يذكر المسيو ادوارد كلرك في تاريخ ولاية « فرانش كونته » بغرسه أن الاسماء المضافة الى سارازين كثيرة في تلك الولاية [illegible] واسمها كهف السارازين وجسران اسم كل منهما جسر السارازين . وثلاثة قصور كل منها يقال له قصر السارازين . وطريقان كل منها منسوب الى السارازين . وسد طاحون منسوب الى السارازين . وواد صغير يسمونه وادي السارازين . وجندلان كبيران كل منها يقال له صخر السارازين . وباب يرفع ويخفض من آثار السارازين ، وقرية اسمها سارازا . وهناك أيضا حائط السارازين ومعسكر السارازين الخ وأمثال هذه الاسماء يجدها الانسان في مقاطعة بريس وفي الليونه فمن ليون الى حدود فرنسة الجنوبية تكثر الابواب التي ترفع وتحط امام القلاع وكلها منسوبة الى السرازين

ويقول هؤلاء المؤرخون الذين أثرنا عنهم ما تقدم من تاريخ العرب في سويسرة انه كان للعرب قدرة بالغة على البناء وتشييد الابراج وتحصينها وإحكام اقفالها وقد تركوا آثارا بديعة مدهشة ففي ايطالية وغربي سويسرة لا تزال جدران كثيرة مبنية بالحجارة الكبرى من بناء العرب ، وفي كل بناء تركوه ظهر انهم أهل هندسة وقوة حيلة يعجب بها كل من تأملها فتركوا بهذه الآثار ذكرا عظيما بين الاهالي

ثم انه قد وجدت في سويسرة مسكوكات كثيرة عربية واكثرها من مسكوكات الاسلام في افريقية منها ضرب سنة ١٦٩ للهجرة ومنها ضرب ١٨٢ للهجرة وأكثرها من عصر هرون الرشيد وقسم منها مضروب في القيروان ، ويظن أن اكثر هذه النقود وصلت الى سويسرة بواسطة النورمانديين وكذلك وجدت في بلدة مودون من سويسرة مسكوكات منها من سنة ١٧٠ للهجرة مضروب في افريقية ومنها ضرب اسماعيل بن احمد في أيام الخليفة المعتضد سنة ٢٨٣ للهجرة ومنها ضرب في بغداد سنة ٣٦١ هجرية مكتوب على بعضها من الوجه الواحد: لا إله الا الله وحده لاشريك له . ركن الدولة أبو علي بويه . ومن الوجه الآخر: باسم الله قد ضرب هذا الدرهم في مدينة السلام عام ثلاث مائة وأربع وستين . ووجد على بعضها : محمد رسول الله ، الطائع لله الملك العادل عضد الدولة أبو شجاع . ويظن أن هذه المسكوكات وصلت بواسطة الحروب الصليبية أو عن طريق التجارة

ومما وجد من [illegible] مطرز في دير يقرب (شور) يستعمله القسوس في القداس عليه كتابات عربية مطرزة بالقصب ولا شك انه قبل أن يصير ثوبا كنسيا كان خلعة ملوكية أو حلة لاحد الامراء وقد أتى المسيو سانستر دوساسي في كتابه المنتخب من تآليف العرب في الصفحة ٣٠٥ على بحث دقيق يتعلق بهذه المنسوجات العربية الفاخرة فقال ما ترجمته

« عرفنا منسوجات كثيرة من هذا النوع الذي يسميه ابن خلدون بالطراز منها المعطف الذي كان يلبسه قياصرة ألمانية عند تتويجهم فهذا الرداء عليه كتابات عربية منسوجة بخيوط ذهبية وقد قرأها وترجمها المسيو تيشن فظهر انه نسج في بلرم في دولة الملك روجر (والعرب يقولون رجار) سنة ٥٢٨ هجرية أي ١١٣٣ ميلادية ونجزم بانه في أيام رجار لان الكتابات ليس فيها شيء من آثار الدين الاسلامي . ومنها قطعة حريرية مطرزة بالذهب محفوظة في خزانة ذخائر كنيسة (نوتردام) الكبرى بباريز بمدينة الصنع مكتوب عليها اسم الخليفة الحاكم بامر الله المتوفى سنة ٤١١ للهجرة ، ثم قطعة ثالثة شبيهة في النفاسة بالثانية وجدت في ضريح

بدير سان جرمان المروج عليها كلمتان عربيتان مكررتان مرارا . كذلك في مؤلف ظهر على آثار بلرم باللغة الايطالية طبع في نابلي سنة ١٨١٤ مذكورة كتابة عربية وجدت على اكمام القميص الذي وجد في ضريح الامبراطور فريد ريك الثاني المتوفى في ١٣ ديسمبر سنة ١٢٥٠ كذلك يذكر المسيو (دومور) سجادة عليها كتابة عربية نسجت في مصر في زمان الخليفة المستعلي بالله وذلك يكون بين سنة ١٠٩٤ م وسنة ١١٠١ للميلاد وهذه السجادة هي في خزانة آثار الفاتيكان الآن (أي في زمان دمامي وهذا عاش بين سنة ١٧٥٨ وسنة ١٨٣٨)

قد نقلنا كثيرا من هذا التاريخ عن المسيو رينو الفرنسي وهو من المستشرقين المشهورين كان عضوا المجمع الملكي للآثار والآداب وأحد حفظة الكتب الشرقية المخطوطة في مكتبة باريز الملوكية وتأليفه المسمى غارات العرب في جنوبي فرنسة وفي البيامون (شمالي ايطالية) وفي سويسرة طبع بباريز سنة ١٨٣٦ وقد طالعنا منه نسخة في مكتبة [illegible] سنة ١٩٢٠

وأما المؤرخ الآخر الذي اعتمد عليه (رينو) فهو (ليودبراند) المؤرخ الشهير القديم العهد ولد سنة ٩٢٢ في لومباردية من أصل شريف ونشأ في بلاط الملك هوغ المار الذكر في بافيا سنة ٩٤٥ وعندما نفى الملك هوغ دخل (ليود براند) في خدمة (برانجر) خلفه وقد سفر لبرانجر هذا الى ملك القسطنطينية وكانت وفاته سنة ٩٧٠ والف كتابين باللاتينية أحدهما اسمه «معالى الامبراطور أوتون الكبير » والثاني اسمه « سياحتي الى القسطنطينية » ملاه هزؤا بدولة بيزنطية وصنف كتابا اسمه « الانتقام » كله نكات ونوادر على أبناء عصره . وفي زمانه كانت وقائع العرب في سويسرة

هذا ما اتصل اليه علمنا من تاريخ اقامة العرب بسويسرة ، أو بالاحرى « انتداب » العرب لادارة تلك البلاد في القرن العاشر . فان قيل انك تعرض بما تسميه دول الحلفاء اليوم انتدابا على سورية وفلسطين والعراق وهذا لا يشبه ذاك أجبنا أنه لا يوجد أدنى فرق بين الانتدابين، فاذا كان العرب سفكوا دماء بسويسرة

فهو ولا شك أقل جدا مما سفكه الحلفاء في سورية والعراق واذا كان أخذوا جماعة بثأر واحد فالحلفاء لم يتوقفوا دقيقة واحدة عن تدمير قرى بتمامها ورمي القنابر الديناميتية على النساء والاطفال والعاجزين وحصد رؤوس الالوف لاجل الانتقام من عمل رجل واحد أو عصابة مؤلفة من بضعة رجال وان قبل ان العرب في سويسرة سلبوا ونهبوا فهل اذا تأمل المنصف ادارة الحلفاء في البلاد الشرقية التي احتلوها وما جمعوه منها من الذهب وما وزعوا من الاوراق المالية بدون ضمان وما حملوا الاهلين من المغارم وما استأثروا لانفسهم من معادن البلاد وأصناف مرافقها يجد شيئا غير السلب والنهب ؟ وزد على ذلك شيئا وهو أن العرب لم يخدعوا أهل سويسرة في القرون الوسطى بقولهم انهم حلفاؤهم وانهم انما جاؤهم لتحريرهم من رق الاجانب حتى اذا انكشف الغطاء عرفوا انها خدعة وظهرت الذئاب من تحت أصواف الحملان كلا كان عمل العرب في سويسرة أشرف وأبعد عن [illegible] دولا عظاما بل شرذمة صعاليك لايعيبهم مايعيب الدول العظام (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

شكيب أرسلان

في ١٥ ابريل سنة ١٩٢٢

(المنار) إننا نود لو يكون للقراء من العبرة بهذه الاثارة من تاريخهم ماهو في نظرنا أهم من المقارنة التي ختمها بها الامير الكاتب مراعاة لمقتضى الحال. وهي المقارنة بين أحوال الامة في طور حياتها واقبالها، وطور ضعفها وادبارها. تتقاذف الامواج برهط من صعاليك العرب لايتجاوز عددهم أصابع اليدين فتلقيهم بسواحل بلاد لا يشاركهم أهلها في لغة ولا دين، ولا تربطهم معرفة ولا عهد، فيكون من أمرهم وأمر شراذم تتبعهم مااستخرجه لنا الكاتب من أسفار تواريخهم من عزة ومنعة، وتمكن في الارض، وقتال أو اجارة للامراء والملوك، وفرض الضرائب والمكوس، واقامة للصروح والحصون، — ثم يكون من أمر هذه الامة أن يقتل ألوف الالوف منهم في عقر دارهم، ويسلبون قيادهم فيها لاعدائهم

باختيارهم ، حتى يكون من مثل أمير الحجاز تلك البلاد المقدسة التي تحترمها الدول الكبرى ولا تدنو منها بسوء أن يقترح باختياره على الدولة الانكليزية أن تنتزع البلاد العربية حتى المقدسة من الترك وتجعلها تحت حمايتها - وأن يكون هذا الاقتراح في الوقت الذي كانت فيه هذه الدولة تتوقع محو اسمها من الدول العظمى بقوة الحلف الالماني التركي حتى لو أجمع العرب أمرهم واقترحوا عليها الاعتراف باستقلالهم المطلق ومساعدتهم عليه ولو في مقابلة عدم مساعدة الترك عليها - فضلا عن مساعدتها على الترك - لتبلوا شاكرين (فاعتبروا يا أولي الابصار)

باب المراسلة والمناظرة

جاءتنا الرسالة الآتية في مسألة تسويد النبي (ص) في العبادات المشروعة ومسألة التوسل فننشرها مع الوعد بنشر ما عندنا من رد عليها نراعي فيه آداب المناظرة

(إماطة اللثام ، عما علق بأذهان بعض المنتسبين الى العلم من الاوهام)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وعلى آله الهادين المرشدين .

« أما بعد » فانا نحرر هذه الرسالة قياما بما أوجبه « الدين النصيحة » في الكشف عن مسألتين خلط فيهما بعض من ينتسب للعلم (الاولى) راجعة الى الاحكام (والثانية) راجعة الى العقائد

موضوع الاولى (تسويد) النبي صلى الله عليه وسلم وقضاؤنا فيها أن من أتى بها في الصلاة أو في الاذان أو في دعاء مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم على أن تكون من شرع الله ودينه فهو مبتدع ، وفي الاوليين مبطلة لهما ، وفي الثالث مكروهة كراهة تحريم وقد رأينا أن نجري على ما كان عليه المهتدون الاولون في الارشاد فنقدم الادلة على هذه الامور الثلاثة . التسويد في الصلاة

وما بعدها تطبيقا لفروع على الاصول وان كانت أحوال المناظرة وقوانينها تقتضي على المثبت بأقامتها لا علينا كما هو معروف عند الاصوليين وسواهم ان المثبت لامر هوالمدعي المطالب بأقامة الادلة على دعواه أما النافي فيكفي أن يقول لم يرد ونحوه فنقول :

إن مرجع الاحكام الى واحد من أربعة أمور أو خمسة على الخلاف في الاستحسان والمصالح المرسلة (١) كتاب الله (٢) صحيح السنة أو حسنها أوضعيفها فيما يتم العبادة المعروفة كتعبد بفضائل الاعمال الخالي عن ورود شيء فيه من النوعين الاولين (٣) الاجماع بأنواعه ولا سيما الثابت عن الصحابة (٤) القياس الصحيح فيما لا نص فيه «دع الاستحسان والمصالح المرسلة» أما الكتاب فلا تعرض لها فيه اذ لم يذكر اسم النبي صلى الله عليه وسلم الا مجردا عنها وأما السنة فهي نافية لها لان الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم المذكورة بعد التشهد على اختلاف الروايات فيها [illegible] عليه وسلم اياها للصحابة خالية من تسويد [illegible] والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم توقيفي ثابت بعد كلماته ولم يذهب أحد من الاربعة ولا غيرهم من علماء المسلمين متقدميهم ومتأخريهم الى جواز ذكرها في الاذان ولا في الاقامة، وأما بعد التشهد فالكثيرون أو الاكثرون على عدم جوازها كما سيأتي بيانه بعد متصلا

لا يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم تركها تواضعا — فتركها لو وجبت أو شرعت ولواستحبابا أو جوازا لوجب على النبي (ص) تبليغها أوجاز والا لم يؤد وظيفة البلاغ كما أمره الله تعالى بقوله (بلغ ما أنزل اليك من ربك) الآية بخصوصها وانه في مقام البيان بعد سؤال الصحابة (رض) عن كيفية الصلاة عليه المشروعة بقوله (ان الله وملائكته) الآية . رواه مسلم وغيره . وايضاً فهي مخالفة لقوله (ص) «صلوا كما رأيتموني أصلي» رواه البخاري وقد فهموا رضي الله عنهم ما أراده ونعم مافهموه ولذلك امتنعوا من الاتيان بها ولو كانت غير مبطلة فضلاعن كونها مندوبة كما يزعم البعيد عن معنى كونه (ص) مشرعا وكونهم ممتثلين كلامهم

الاتيان بها وهم أفضل الامة وأكثرها أدبا وقدرة لمن بعدهم الى يوم القيامة وان اتفاقهم على عدم الاتيان بها من غير انكار أحد منهم على أحد مع ماهو معروف عنهم من اكباره (ص) واجلاله لهو أبلغ اجماع على عدم الاتيان هذا وقد روى النسائي عن عبد الله بن الشخير (رض) انه قال انطلقت في وفد من بني عامر الى رسول الله (ص) فقلنا أنت سيدنا فقال رسول الله (ص) «السيد الله» قلنا وأعظمنا وأفضلنا قال «قولوا بقولكم أو بعض قولكم أنا محمد عبد الله ورسوله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي رفعني الله عز وجل» فهذا الحديث صريح في نفيها من وجهين الاول دلالة الفحوى فانها احدى طرق النصر وذلك قوله السيد الله فانها جملة معرفة الطرفين مفيدة للحصر ولهذا وقع الرد بها في القرآن ردا على الحصر بانما في قوله تعالى «ألا إنهم هم المفسدون» رداً لقولهم (انما نحن مصلحون) وأمثال هذا كثير . الوجه الثاني بالمنطوق وهو قوله (ص) ما أحب أن ترفعوني الخ ومثله بالحصر محمد رسول الله وقوله (وما محمد الا رسول) وأمثال هذا !

فقد تبين من هذا أن كلا من الكتاب والسنة والاجماع يمنع الاتيان بها ولا يجترىء مسلم على القول بان الصحابة (رض) اجتمعوا على منكر وهو ترك شيء من الدين، وبهديهم اهتدى التابعون لهم باحسان فمن بعدهم حتى دب الفساد في المسلمين ، وغلبت الاهواء على أئمة الدين ، فجاؤا بالاستحسان والمصالح المرسلة فزلزلوا سلطان الدين من النفوس (١) حتى صار لا يسمع الا قول فلان وفلان وصار الدين وضعا فكريا لا وضعاً الهياً

وأما القياس فهو بنفيها أشبه وان لم تكن اليه حاجة بعد النصوص لانه انما يستدل به فيما لا نص فيه وقد قدمنا النصوص من الكتاب والسنة والاجماع .

(١) المنار : ان مراعاة المصالح المرسلة في الاحكام الشرعية قال بها الامام مالك وهو عنده خاصة بالمعاملات القضائية والسياسية دون العبادات التي جعل مدار اثباتها على الاتباع المحض وهو الحق

ومع ذلك فهو قاطع في نفيها ولنورد على ذلك بعض الامثلة: لايجهل أحد أن أفضل ماينطق به اللسان هو القرآن الكريم وقد أجمعوا على أنه لو أتى به في ركوعه أو سجوده كان مخالفا للسنة وقد روى مسلم في صحيحه ان رسول الله (ص) رفع سجاف حجرته في مرضه الذي مات فيه فأشرف على الصحابة وهم متأهبون للصلاة فقال «نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا» ولا يقال انه نهى عنه لاطالة الركوع والسجود لان كثيره وقليله سواء في النهي ولانه لو أطالهما بالتسبيح بمقدار سورة البقرة ولاسيما في النوافل لما بطلت صلاته، فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم انه قرأ في ركعة واحدة البقرة ثم النساء ثم آل عمران ثم كان سجوده قريبا من ركوعه المذكور» رواه مسلم. فالسيادة التي ليست بذكر ولم ترد في شيء مما تقدم من الادلة أولى بالمنع

مثال آخر: قال الامام النووي في شرحه حديث كيفية تعليم النبي (ص) الصحابة (رض) أن يصلوا عليه ما خلاصته: ان قول القائل في الصلاة ورحمت قبل وباركت أو بعدهما غير جائز وان وردت في حديث غريب لان العبادة لايؤخذ فيها الا بالحديث الصحيح أو الحسن الخالي عن علة كالغرابة ونحوها اه

فالسيادة أولى بالمنع لعدم ورودها ولا في حديث موضوع بل ورد النهي عنها كما تقدم في حديث النسائي فهي إحداث محض في الدين (١) مردودة على محدثها

---

(١) صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «أما بعد فان أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد (ص) وشر الامور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»

وقد عرف الامام الشافعي رضي الله عنه البدعة بما نصه (ماأحدث وخالف كتاباً أو سنة أو اجماعا أو أثراً فهو البدعة الضالة) وقد بينا أن تسويد النبي (ص) في الصلاة والأذان والدعاء المأثور لم يرد في واحد من الاربعة التي ذكرها الشافعي في تعريف البدعة اه من حاشية الاصل

عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة، يشهد بذلك قوله صلى الله عليه وسلم «من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد» وفي رواية «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» مسلم عن عائشة (١)

هذا مايتعلق بها من حيث الاصول الاربعة المعول عليها . ولنرجع اليها من حيث الفروع فنقول : مذهب الشافعي أن كل كلام أجنبي أي غير مشروع مبطل للصلاة ولو حرفا مفهما أو حرفين وان لم يفهما . وقد تبين مما تقدم أنها كلام أجنبي بالمعنى المذكور والقول بالبطلان ليس بدعا منا بل هو قول المحقق الطوسي من أئمة الشافعية وقد نقل هذا العلامة الكردي المدني في حاشيته على شرح ابن حجر الهيثمي قال ما محصله : اختلف في تسويد النبي (ص) عقب التشهد فقيل بجوازه تأدبا وقيل بكراهته وقيل بحرمته وقال الطوسي من أئمتنا انها مبطلة . قال الكردي بعد هذا ولعل الطوسي غلط اه وقد تبين مما تقدم أنه الحق وأما تغليطه اياه فهو مبني على ما قدمه من جوازها تأدبا وعلى ماقاله بعض المتأخرين من الشافعية وهم شذوذ بالنسبة الى المتقدمين لان القول بجوازها تأدبا يؤدي الى رفع الادب عن الصحابة والتابعين لهم باحسان وهو مالا يجتري، على القول به ذودين

هذا ولم يقل بجوازها أحد من الائمة الاربعة ولم ينقل عن أحد من أصحابهم القول بالجواز . هذا مايتعلق بها من حيث الفروع والاصول . وان فيه لمقنعا لمريد الحق المنصف

مسألة التوسل

والمسألة الثانية من الرسالة موضوعها ما ادعاه بعض من انتمى الى العلم من سنية التوسل مرتكنا فيه على حديثين أحدهما «اللهم اني أسألك بحق السائلين عليك» الثاني ما ورد في تفسير الكلمات التي تلقت آدم أو تلقاها في قوله تعالى

(١) اللفظ الثاني انفرد به مسلم ورواه احمد أيضا وأما الاول فمتفق عليه

(فتلقى آدم) الآية وانا نتكلم على كل من الحديثين ثم نفصل المسألة من حيث المنقول فيها عن الائمة بالايجاز فنقول في شرح الحديث الاول « وخير مافسرته بالوارده جاء من حديث معاذ عند مسلم ماملخصه « ان حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وان حقهم عليه اذا هم فعلوا ذلك الا يعذبهم » فمعنى حق السائلين أي العابدين المخلصين في عبادتهم كما يؤخذ من الحديث هو أن تشملهم رحمته وحينئذ يرجع معنى الحديث الى ان رسول الله (ص) سأل الله أن يدخله في رحمته لانه خير عابد مخلص بصفة من صفاته الذاتية وهي الرحمة المبينة في حديث « ان رحمتي سبقت غضبي » وسؤال الله بصفة من صفاته لا شيء فيه وليس هو توسلا بذات مخلوق أو عمله بل هو سؤال بجزاء على عمل الانسان نفسه في مقابلة عمله كما يوضحه قوله صلى الله عليه وسلم في حديث معاذ « اذا هم فعلوا ذلك » فاذا كان معنى الحديث ماقدمناه لم يدل على سنية ماز عم من التوسل ولا على جوازه . والمنقول عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم خصوصا أئمة المذاهب الاربعة وأصحابهم عدم الجواز

رأي أبي حنيفة واصحابه

قال ابو حنيفة واصحابه لايجوز أن يسأل بمخلوق ولايقول أحد أسألك بحق أنبيائك . قال ابو الحسين القدوري في كتابه الكبير في الفقه المسمى بشرح الكرخي بعد أن ذكر ما تقدم ما نصه : وقد ذكر هذا غير واحد من أصحاب أبي حنيفة قال بشر بن الوليد حدثنا أبو يوسف عن أبي حنيفة انه قال لاينبغي لاحد أن يدعو الله الا به ، وقال أبو يوسف أكره أن يقول بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام وقال القدوري المسألة بخلقه لاتجوز لانه لاحق للخلق على الخالق فلا تجوز وفاقا وما يقول فيه ابو حنيفة وأصحابه أكره كذا هو عند محمد حرام وعند أبي حنيفة وأبي يوسف الى الحرام أقرب ، وجانب التحريم عليه أغلب

رأي الشافعية

في فتاوى أبي محمد العز بن عبد السلام مانصه: لايجوز سؤال الله بشيء من مخلوقاته لا الانبياء ولا غيرهم: ثم قال: وأتوقف في جوازه بنبينا (ص) لاني لا أعرف صحة الحديث فيه، والحديث الذي يشير اليه هو «توسلوا بجاهي فان جاهي عند الله عظيم»(١) حديث باطل باتفاق الحفاظ، ونقل ابن القيم ان الدعاء عند القبر والصلاة عنده والتمسح به لانه قبر فلان الصالح بدع منكرة باتفاق أئمة المسلمين. وان ماينقله بعض الجهلة من دعاء الشافعي عند قبر أبي حنيفة كذب ظاهر اه: ونقل النووي عن الشافعي مانصه أكره أن يعظم مخلوق واصطلاحه في مثل هذه العبارة معروف وهو التحريم، ولم ينقل عن مالك وأحمد في المسألة شيء سوى السلام على النبي (ص) وصاحبيه (رض) لمن وجد عند القبر، بل نقلت [illegible] عن القدوري وابن القيم اه الكلام على أحد [illegible]

وأما على الثاني فقد قال السيوطي في تفسير الكلمات من قوله تعالى: (فتلقى آدم من ربه كلمات) الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لما أذنب آدم الذنب الذي أذنبه رفع رأسه فقال. أسألك بحق محمد الاغفرت لي، فأوحى الله اليه ومن محمد؟ فقال. تبارك اسمك لما خلقتني رفعت رأسي الى عرشك فاذا فيه مكتوب لا اله الا الله محمد رسول الله، فعلمت انه ليس أحد أعظم قدراً ممن جعلت اسمه مع اسمك، فأوحى الله اليه يا آدم انه آخر النبيين من ذريتك ولولاه ماخلقتك» رواه الطبراني وابو نعيم والبيهقي وابن عساكر والحاكم وانفرد الاخير بتصحيحه» اه يرويه جميعهم عن عبد الرحمن بن زيد بن اسلم عن أبيه عن جده عن عمر

(١) المنار الذي نجزم به ان سلطان العلماء لايخفى عليه أن هذا الحديث موضوع وانه انما عنى حديث الاعمى والرواية التي تدل على ماذكر من رواياته ضعيفة كما حققه شيخ الاسلام في كتاب التوسل والوسيلة

ابن الخطاب برفعه ولم يتابع السيوطي عليه أحد من المفسرين بالمأثور كابن جرير والحافظ ابن كثير وغيرهما ولو شئنا أن ننقل أقوال أولئك العلماء في تفسير الآية لاحتجنا الى عدة أوراق ولكن نكتفي بأنهم أهملوا ما قال السيوطي - واسناد الحديث في الطبراني الصغير هكذا: عن محمد بن داود بن اسلم الصوفي المصري عن احمد بن سعيد المدني الفهري عن عبد الله بن اسماعيل المدني عن عبد الرحمن بن زيد بن اسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب قال الطبراني لا يروى عن عمر الا بهذا الاسناد تفرد به احمد بن سعيد اه

«ملحوظة» (اتفق المحققون العلماء على عدم الاحتجاج بالحديث اذا روي بالعنعنة المحضة (١) كالاسناد الذي معنا اذا لم يصرح بلفظ التحديث أو الاخبار أو السماع من طريق أخرى وقد صرح الطبراني انه لا يروى الا بهذا الاسناد كما تقدم عنه)

قال البيهقي ([illegible]) يريد بذلك انه شاذ كما أراد الطبراني بأحمد بن سعيد وقال [illegible] على تصحيح الحاكم ليس كل ما صححه الحاكم مقبولا وقال المدارسي في هذا الحديث بخصوصه في كتابه (كشف الاحوال في نقد الرجال) إن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف باتفاق وقال العلامة احمد بن ناصر التميمي في كتابه (تقريب التهذيب) جوابا لسائل سأله عن تصحيح الحاكم لهذا الحديث انه من رواية عبد الرحمن بن زيد: يعني ليس بصحيح وقال احمد بن حنبل: عبد الرحمن بن زيد بن اسلم ضعيف وقال يحيي ابن معين. ليس حديثه بشيء. وضعفه علي بن المديني جدا وهو أمام الحفاظ في عصره صاحب تآليف عديدة في الجرح والتعديل، وقال ابو داود صاحب السنن أولاد زيد بن اسلم كلهم ضعيف وقال النسائي من أصحاب السنن ضعيف وقال ابن عبد الحكم سمعت الشافعي يقول. ذكر رجل لمالك حديثا فقال من حدثك فذكر اسنادا منقطعا فقال مالك اذهب الى عبد الرحمن بن

(١) المنار: لايصح هذا على اطلاقه بل هو مقيد بعنعنة المدلسين

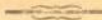
زيد يحدثك عن أبيه عن جده عن نوح (ومالك هو الامام الجليل) وقال أبو زرعة أحد الحفاظ الذين يروي عنهم البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن في شأن عبد الرحمن انه ضعيف ، وقال ابو حاتم الحافظ المعروف : ليس عبد الرحمن ابن زيد بقوي في الحديث كان في نفسه صالحا وفي الحديث واهيا اهـ

وقال ابن حبان كان يقلب الاخبار وهو لا يعلم حتى كثر ذلك في روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف فاستحق الترك اهـ

وقال ابن سعد صاحب الطبقات في شأنه ، كان كثير الحديث ضعيفا جدا اهـ وقال ابن خزيمة ، ليس عبد الرحمن ممن يحتج أهل العلم بحديثه اهـ وقال الحاكم وابو نعيم وهو الراوي للحديث روى عن أبيه أحاديث موضوعة اهـ وقال الحافظ بن الجوزي الناقد للاحاديث أجمعوا على ضعفه اهـ

فهذا الحديث الذي [illegible] في جواز التوسل قد بينا شأنه وأقوال العلماء فيه ولكن [illegible] اتفاق المسلمين كما نقلناه عن الائمة على عدم جواز التوسل فضلا عن سنيته نسأل الله التوفيق والاهتداء بما جاء عن خير الامة والمهديين بسنته والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه آمين

تحريرا بالعلاقه في ٤ شوال سنة ١٣٤٠ هـ   احمد عطيه قوره



ذكرى رينان فى الجامعة المصرية

(محاضرة الشيخ مصطفى عبد الرازق في رينان والافغاني)

رينان كاتب بليغ من كتاب الفرنسيس وملاحدتهم اشتهر اسمه في مصر وبعض البلاد العربية الاخرى بخطاب (محاضرة) موضوعه (الاسلام والعلم) وجه به قوة فصاحته وبلاغته الخلابة الى الطعن في الدين الاسلامي والامة العربية لينقض بها ماشاده علماء فرنسة الفلاسفة الاعلام وغيرهم من التاريخ المجيد للعرب والاسلام، وفي مقدمتهم الفيلسوف الاجتماعي الكبير (غوستاف لوبون) صاحب كتاب (حضارة العرب) الذي سارت بذكره الركبان والعلامة (سديو) الشهير صاحب كتاب (تاريخ العرب) ولكنه تكلم بجهل وتكلموا بعلم

وقد كان من مثار العجب للناس أن الجامعة المصرية أقامت حفلة حافلة لذكرى رينان بمناسبة [illegible] في استنباط الباعث لاساتذة الجامعة على اختيار هذا الملحد الطاعن في دين الاسلام وفي المسيحية أيضاً للاشادة بذكره واعلاء قدره على عدم حفظ أي منقبة له تنعم بها البشر فأصاب هذه البلاد وهذه الامة حظ منها يستحق بها ذلك عليها، والعهد قريب باحتفال فرنسة وغيرها بذكرى عالم من علمائها بل من أكبر علماء الارض ومكتشفيهم نفع البشر كلهم بعلمه واكتشافاته وهو (باستور) الشهير فلماذا لم تحتفل الجامعة باحياء ذكره، واعلاء قدره؟

وقد كان الدكتور طه حسين أحد مدرسي الجامعة المصرية ينشر في هذه الاثناء التي وقع فيها الاحتفال بذكرى (رينان) مقالات في جريدة السياسة يحاول فيها إثبات انتشار الارتياب في الدين الاسلامي والالحاد والفسق عنه في أهل القرن الثاني والثالث للهجرة الاسلامية في بلاد الحضارة العربية كالعراق بل في الحجاز أيضاً، ويستدل على ذلك بشبهات كشبهات رينان، كما أخبرنا الثقات الذين رد بعضهم عليه

وفي اثر ذلك نشر في الجرائد إعلان يبشر الناس بأن الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق سيلقي في الجامعة المصرية محاضرة موضوعها (الفيلسوف

رينان وجمال الدين الافغاني) فظننا نحن وأمثالنا أنه يريد بهذه المحاضرة أن يمحو سيئة ذلك الاحتفال بالاشادة بفضل فيلسوف الاسلام السيد الحسيني سليل البضعة النبوية الطاهرة الذي اشتهر عنه أنه رد على محاضرة رينان في وقتها بما هدم بنيانها ، وقوض أركانها ، وقد أممنا دار الجامعة في مساء اليوم الثاني من شعبان (٢٠ مارس) مع الكثيرين لسماع محاضرته ، فلما سمعناها دهشنا وخاب أملنا ، فخرجنا من دار الجامعة الى دار جريدة الاهرام لموعد اجتماع مجلس ادارة نقابة الصحافة فيها فخف بنا كثيرون ممن خرج معنا من الازهريين وغيرهم فرأيناهم مستائين مما سمعوا كارهين له ، فذكرنا لهم بعض ما في الخطاب من الخطأ والخطل والضعف في المحاضرة فتمنوا لو يكتب فوعدناهم بذلك وقد كتبنا في تلك الليلة المقالة التالية لجريدة الاهرام :

(محاضرة الشيخ مصطفى عبد الرازق)

([illegible])

نظرة عجلى

حضرت هذه المحاضرة في الجامعة المصرية وكنت قد سمعت من شيخنا الاستاذ الامام كلمة مجملة عن رد السيد على رينان فهمت منها ما سأذكره بعد

كنت أظن أن سأسمع ما قاله رينان في الاسلام مفصلا وان يكون فيه شبهات ومطاعن دقيقة تحتاج الى حجج جمال الدين وقوة عارضته فخاب ظني

وكنت انتظر أن اسمع تتمة المحاضرة المعلن عنها في الصحف وهي ما كان بين رينان ومحمد عبده لأرى هل أسمع عنه ضد ما أعلم منه عن نفسه ، كما سمعت ضد ما أعلم منه عن استاذه ؟ ولكن الاستاذ صاحب المحاضرة أطال في المقدمة فضاق الوقت المعين عن الخاتمة ، وهي على ما أظن رد الشيخ محمد عبده على رينان

طعن رينان في الاسلام بأنه عدو العلم والعقل وطعن في العرب بان عقولهم قاصرة بطبعها غير مستعدة لفهم الفلسفة وما وراء الطبيعة وكل ما ذكر في المحاضرة من تلخيص كلامه يدل على انه لم يكن يعرف من أصول الاسلام شيئا الا ببعض

كلام دعاة النصرانية في الجزائر ورجال السياسة الفرنسية فيها وناهيك باخلاص الفريقين والتحقيق والصدق منهم(!) فمن تحقيق الفريق الاول مايعرفه قراء العربية من كتاب (الاسلام للكونت دي كاستري) الذي ترجه بالعربية المرحوم احمد فتحي باشا زغلول فان فيه من العقائد المنسوبة الى الاسلام مالم يخطر في بال احد من البشر لم يطلع على مفترياته . ومن تحقيق الفريق الآخر تفضيل البربر على العرب فى العلم والمدنية ، ودليلهم على ذلك أن أصلهم من برابرة الشمال الاوربيين لا من همج الساميين ، وقد اضطر الى تجهيلهم الفيلسوف الاجتماعي المحقق (غوستاف لوبون) احد أفراد علماء الفرنسيس الذين انصفوا العرب حق الانصاف على علم صحيح بالتاريخ

ومن هذا الباب ثناء رينان على جمال الدين وعلى قومه الافغان بانهم من الارومة الآرية ذات العقل الراقي المستعد للفلسفة العليا التي تستعصي على عقول العرب وعلل بذلك ما زعمه من عدم اشتغال هذا الشعب بالاسلام . والحق الواقع القطعي الدال على مبلغ جهل رينان هو أن السيد جمال الدين هو الفيلسوف الوحيد الذي نبغ من الافغان وهو من صميم العرب من سلالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وان الشعب الافغاني هو أشد الشعوب الاسلامية اعتصاما بدين الاسلام وتعصباً له ، لعله لا يفوقه في هذا أو يساويه فيه الا عرب نجد فاذا كان السيد جمال الدين غير متدين كما ترامى لعقل رينان فقد نقضت قاعدته فى العرب وفى الافغان جميعا ، فما هذه الفلسفة؟ واذا كان هذا مبلغ علمه بهذا الشعب الحاضر ، فما القول بعلمه بالشعب العربي الاندلسي الغابر، اذ فضح نفسه فيما قاله منه شر فضيحة

على أننا لانثق بما نقل الينا الاستاذ صاحب المحاضرة من كلام فيلسوفي الغرب والشرق — على رأيه — فان السيد جمال الدين كتب رده على رينان بالعربية — كما قال — وترجم لجريدة الديبا بالفرنسية . ونقل من الفرنسية الى الالمانية، ومنها الى العربية فهل حفظ الاصل مع كثرة النقل من لغة الى لغة الى أخرى؟

نقل الينا قبل هذا كلام من قول رينان في الامام الغزالي وجدناه غلطا مخالفا لما في كتبه المشهورة كتهافت الفلاسفة وأحياء علوم الدين وهو لم يمتوره من تعدد الترجمة ما أصاب رد السيد جمال الدين

ملخص ما ذكر في المحاضرة من رد السيد الافغاني على الفيلسوف الفرنسي أنه وافقه على كون الاسلام عدو العلم والعقل كسائر الاديان وخالفه في طعنه في العرب . ولكن الاستاذ صاحب المحاضرة نقل عن السيد كلمة وجيزة مجملة فيما عزاه رينان الى الاسلام هل هو من تأثير الدين نفسه أم هو تأثير فهم الناس له واختلاف الشعوب في فهمه ! خرجت هذه الكلمة بصوت غير جهوري فلم تعها كل اذن . ولا فكر فيها كل سامع . ولعل كل ما في الرد من التسليم باضطهاد الاسلام للعلم وعداوته للعقل وبني على هذه الكلمة

ههنا أذكر كلمة الاستاذ الامام عن رأي استاذه السيد جمال الدين في الدين والعلم ، وهي ان الاسلام [illegible] الصحيحة وانه لولا تأثير هدايته لما انتقل العرب من الامية الى أعلى ما كان عليه جميع البشر في كل علم وكل فن وكل نظام وكل عمران في مدة جيل واحد حتى سادوا الفرس والروم والاوروبيين وغيرهم ، وهل يعقل ان تلك الشراذم التي خرجت من جزيرة العرب حفاة عراة لا يعرفون من العلم شيئا غير القرآن ولم يكن كل واحد منهم يحفظه كله يمكن أن تدوخ كل هذه الامم وتسودها وتسوسها من ساحل المحيط الاطلسي الى الشرق الاقصى وتخضعها لدينها ولغتها بالسيف ؟ ؟

ولكن المسلمين ابتدعوا في الاسلام بدعا كثيرة لم يمكن تداركها بسبب فساد نظام الخلافة واخراجها عن أصلها الذي يشترط فيه العلم الاستقلالي والعدالة وبهذا الابتداع الذي صار اسلام القرآن فيه غير اسلام المنتسبين اليه أضاعوا العلم به ثم عادوا كل علم حتى صاروا الى ما كان يسعى السيد لتلافيه وتداركه ، فكأنه يقول لرينان كل ما ذكرت من عداوة الاسلام للعلم مما تكثر الشواهد عليه في التاريخ — وان كانت قليلة في عهد الاسلام بالنسبة الى غيره من الاديان

فهو الاسلام الذي فهمه خطأً اولئك الذين عادوا العلم والعقل والحضارة لا اسلام القرآن الذي يخاطب العقل و يرفع شأن العلم في آيات كثيرة ويبين أن لله سننا في الكون قام بها نظامه وان هذه السنن لاتبديل لها ,لا تحويل

من الكلمات المأثورة عن السيد جمال الدين ان القرآن وحده كاف لرفع البشر الى أرقى مقام من العلم والعرفان والفضائل والحضارة ، لو أن شعبا وجده على صخرة في جزيرة بالبحر ولم ير غيره ، وليس معنى هذا أن فيه مسائل جميع العلوم والفنون التي يرقى بها البشر وانما معناه انه يصلح العقول والانفس ويدفعها بهدايته الى طلب هذا الكمال

وكتب الي صديقي الشيخ عبد القادر المغربي من الاستانة أيام كان السيد فيها انه زاره فكان مما سمعه منه أنه ليس [illegible] اوربا و بين القرآن من حجاب عنهم من الاهتداء به الا نحن معاشر المسلمين ، قال: انه رفع كفيه ووضعهما أمام وجهه وفرج بين أصابعه [illegible] من خلال القرآن هكذا فيرون وراءه شعوبا قد فشا فيها الجهل والفقر والتخاذل . . . . . فيقولون لولا أن تعاليمه باطلة لما كان اتباعه بهذه الدركة من الانحطاط ، فاذا أردنا أن نهديهم الى الاسلام فلنقنعهم أولا أننا لسنا مسلمين

وقد سألت الاستاذ الامام : هل وفى السيد بما وعد به من كتابة كتاب يثبت فيه ان المدنية الفاضلة التي مات الحكماء بحسرة من فقدها لاتحقق في العالم الا بالدين الاسلامي ؟ فقال لا أعلم أنه كتب شيئا بهذا العنوان ولكنه كتب كتابا أوقال رسالة فارسية في العدالة العامة أثبت فيها هذه القضية ولا أعلم مافعل الله بهذا الكتاب أو الرسالة (الشك مني)

ومن أراد أن يعرف رأي السيد في تأثير الاسلام في اصلاح البشر فليقرأ مقالات العروة الوثقى الاجتماعية في الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام ، وأما موضوع الاسلام والعلم فقد فصله الاستاذ الامام في كتاب الاسلام والنصرانية تفصيلا. وسأعود الى هذا الموضوع فأوفيه حقه في المنار إن شاء الله تعالى

فعلم من هذا أن الذي يتفق مع ما كتبه السيد جمال الدين أو أملاه في حقيقة الاسلام وكونه دين الحكمة والعقل والمدنية هو أنه قد وافق على أن الاسلام الممزوج بالبدع هو ذلك الذي اضطهد بعض اهله رجال العلم كما كان يقول في مجالسه بمصر عند رده على بعض آراء الاشعري في الكسب والجبر والتحسين والتقبيح العقليين : ان دين الاشعري في المسألة كذا وان إله الاشعري قادر مريد — غير حكيم

ويحب الملحد ان يكون عظماء الرجال ملاحدة مثله واذا كان من منتحلي الفلسفه والعلم والباحثين في الادلة يظن ان من عرف بالعقل والعلم والحكمة لا يمكن ان يكون ذا دين. وهذا ما كان يحمل بعض الناس على القول بأن جمال الدين ومحمد عبده غير متدينين .

وقد كان يسألني بعض من يعرفون من الصدق : هل الاستاذ الامام متدين بالفعل اعتقادا و[illegible] السؤال عن تنتني من يحسنون الظن ب[illegible] المشهورين [illegible]، وآخر من سألني هذا السؤال عن تفني أديب في حضرة جماعة من المسلمين والمسيحيين منهم سليم افندي سركيس الكاتب المشهور، وموضوع السؤال الايمان بالبعث والحياة الاخرى بعد الموت ، وقد أجبتهم بما أزال استبعادهم للبعث وصوره لهم بصورة تتفق مع العلوم والفنون العصرية ولا سيما الكيمياء حتى اعترفوا بذلك

ان الملحد يحكم على غيره بالالحاد بأدنى شبهة وقد حدثني الدكتور شميل أنه سأل السيد جمال الدين عن الدليل على وجود الله تعالى — قال فشرع يذكر لي قواعد كلامية في استحالة الترجيح بغير مرجح والممكن والواجب لم افهمها فعلمت أنه شاك ولا يستطيع أن يقيم برهانا علميا واضحا ، والذنب على الدكتور شميل الذي كان خالي الذهن من تلك الاصول والقواعد العقلية التي اعتمد عليها متكلمو الاسلام في المسائل الالهية — فظن أن السيد يقول ما لا يفهم لانه هو لم يفهم ما قاله السيد

أرى في هذا البلد أفراداً يعتنون في هذه الايام بافساد عقائد المسلمين ويجرئهم على الكفر وعلى الفسق أيضاً (١) حتى زعم بعضهم أن أكثر المسلمين كانوا كذلك في القرن الثاني للهجرة مرتابين في الدين وفاسقين عنه بدليل ما يوجد عنه في بعض كتب الخلاعة والاخبار من حكاية ما يؤثر في ذلك عن بعض الافراد من الشعراء والمغنين والمخنثين، على ان رواة هذه الاخبار لا يوثق بهم وأين هم من كتب المحدثين الثقاة وتراجم العلماء والصلحاء الذين ملأوا الدنيا علماً وفضلا وقدوة صالحة؟ إنهم لا يستطيعون قراءة أمثال هذه الكتب ولا تصديق مؤلفيها (ولكل وجهة هو موليها)

وأما نحن فاننا لا نقبل الا رواية الثقاة العدول وننصح للناس أن يعرضوا عن اللغو والفضول، وروايات من لا يوثق بعدالتهم، ولا سيما اذا كانت مخالفة للروايات الصحيحة التي تعارضها، وعلماء نقد الحديث يردون رواية العدل المعروف بالصدق اذا خالفت روايات الثقاة الاثبات المعروفة فآراء حكيم الاسلام السيد جمال الدين الافغاني [illegible] وفي مقالات العروة الوثقى وغيرها برواية الثقاة وقد طبعت في عصره وتناقلها الالوف ومئات الالوف في الشرق والغرب فهل يصح أن نردها بجمل مقتضبة منقولة عمن لا يوثق بهم بعد مرورها من مضيق لغات مختلفة تعودنا أن نسمع من أهلها الاختلاق علينا في ديننا وتاريخنا وسياستنا؟ كلا انه لو صح ما نقلوه فيها عن السيد جمال الدين لكانت دليلا على جهله فيما نعلم أنه من أعلم الناس به، وعلى تناقضه وعلى كذبه ونفاقه. ولو كان ذلك — أجل الله قدره — لما صح أن يكون قدوة لاحد، وقات على دعاة الالحاد أن يتخذوه قدوة فيه للناس، كيف وهو الذي أحيا النهضة العلمية والسياسية في الاسلام. رحمه الله وبرأه من تهم أعداء الاديان، كرينان ومقلدة رينان، ونحن انما نهتدي بقوله تعالى (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم الالباب)

(١) تساءل الناس في الجرائد عن هؤلاء الافراد وهم غير محصورين وليس لنا ان نطعن في تدين فرد معين منهم الا بدليل لا يحتمل التأويل والمحاضرة التي نرد عليها ليست كذلك على ضررها في هذا الباب، وتأييدها لهؤلاء الافراد

كلمة المنار في المحاضرة

(١)

كتبنا كلمتنا المجملة للاهرام عقب حضور المحاضرة بحافز التأثير السيء الذي كان لها في نفسنا وفي أنفس الجمهور كما علمنا، كما أن أحد أساتذة الجامعة جاء الاهرام في تلك الليلة بكلمة أثنى فيها على المحاضرة وزعم أن الجمهور تلقاها بالقبول والارتياح . . . ورغب الى رئيس تحريرها أن ينشرها في الجريدة على أن تكون باسمها ففعل، ثم استكتبوا رضا توفيق بك الملقب بالفيلسوف التركي مقالة في الثناء على المحاضرة وتحبيذ موضوعها والتنويه بأمر الجامعة المصرية وأساتذتها ونشروها

ونحن وعدنا في كلمتنا المجملة أن نعود الى الموضوع فنجليه في المنار — والمنار أجدر به — لاجل أن نكتب ما نرى فيه الفائدة بعد قراءة المحاضرة لعلمنا بأن ستنشر في جريدة السياسة التي كانت خصصت بعض صفحاتها لنشر أمثالها، فلما قرأناها ظهر لنا ما كان خفي علينا عند سماعها، وما فاتنا بتدقيق البحث في تاريخ اخراج السيد جمال الدين من مصر وانتقاله في الهند ومجيئه الى باريس فقد أطال فيها بما لم ينشر كله في صحيفة السياسة اذ لم يكن مكتوبا، وكان هو أول ما تبرم به السامعون وتكروه فانهم لم يحضروا لاجل سماع تاريخ السيد في أسفاره وتحرير القول في تاريخها ونرى أن نقسم القول في المنار الى بيان ما ظهر لنا من غرض الاستاذ الشيخ مصطفى من المحاضرة فالدفاع عما رمى به السيد جمال الدين فتفنيد مطاعن رينان الجهلية

الغرض من المحاضرة

كنا نظن أن الاستاذ الذي درس العلم الاسلامي في الجامع الازهر وبعض العلم الاوربي في باريس أراد بعد احتفال الجامعة المصرية برينان، الذي لم يعرف في هذه البلاد الا بما اشتهر من طعنه في الاسلام — أن يقوم بما هو جدير به

من تلخيص رأي رينان في الاسلام وتلخيص رد السيد جمال الدين عليه والزيادة عليه بما يعن له، وختم الكلام بخلاصة الموضوع الذي هو (الاسلام مع العلم والفلسفة) ذلك ما كنا نوده وما كان يظنه الكثيرون

فكانت خلاصة المحاضرة أن السيد جمال الدين الذي اشتهر في العالم الاسلامي كله بأنه حكيم الاسلام وموقظ شعوبه والداعية الى تجديد مجده وإعزاز دولته بهدي الدين وعدو الالحاد وصاحب تلك الحملة المشهورة على أهله في رده على الدهريين — قد كان ما كان من أمره في ذلك محصوراً في حياته قبل أن يذهب الى اوربة — بل الى باريس — وانما كان لغرض سياسي وانه بعد وصوله الى مدينة الكفر والالحاد واجتماعه برينان وأمثاله في أوائل سنة ١٨٨٣ قد تطور فكره في أقل من ثلاث سنين ... فرق من ... واعتقد أنه عدو العلم والعقل والمدنية، حتى انه قبل بكل تعظيم وارتياح طعن رينان في الاسلام، وعظمه وأثنى عليه من جرائه [illegible] من بطلانه وسخفه الذي لا يخفى على [illegible] الاسلام [illegible] الاستاذ الامام (؟)

بهذا أجاب الاستاذ الشيخ مصطفى عن المقارنة بين رد السيد على رينان سنة ١٨٨٣ وبين سائر محرراته حتى رده على الدهريين الذي كتبه سنة ١٨٨١ — وهذا سر ذلك التدقيق التاريخي الذي أشرنا اليه في فاتحة هذه الكلمة ولكن المعروف من تاريخ السيد الحكيم ومن محرراته في سنة ١٨٨٣ وما بعدها انه لم يزدد بعد اقامته في أوربة وباريس خاصة الا استمساكا بعروة الاسلام الوثقى ودفاعا عنه ودعوة الى النهضة الاسلامية المدنية بهدايته العالية. وخلاصة المحاضرة أن فيلسوفي الشرق والغرب قد اتفقا على اثبات عداوة الدين للعلم والعقل وحرية الفكر لافرق بين الاسلام وغيره

علمنا أن صاحب المحاضرة كان يبحث منذ سنين عن آثار السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده فهل كل هذا التعب كان لاجل هذه النتيجة، المستنبطة من تلك المقدمات غير المسلمة ؟

الدفاع عن السيد جمال الدين

اننا نرى التعارض تاما بين هذا الرد الذي استخرجه لنا صاحب هذه المحاضرة من ترجمة المانية عن ترجمة فرنسية لم يرها عن أصل عربي مفقود وبين سيرة السيد ومكتوباته وما روى الثقات عنه من أول عمره الى آخره حيث كان في الاستانة يختلف اليه العلماء والكتاب والاذكياء الذين لقينا كثيراً منهم ، فاي الامرين نرجح ؟

لدينا رجل معروف مشهور روى لنا عنه آراءه وأفكاره كثير من العلماء والفضلاء من أقطار مختلفة عاشروه وتلقوا عنه ، منهم من توفي كالاستاذ الامام والاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان والاستاذ ابراهيم اللقاني الذين كانوا أقرب الناس اليه ، وألصقهم به وأكثرهم استفادة منه ، ومنهم الاحياء كالاستاذ الشيخ نخيت والاستاذ ابراهيم بك المويلحي ، ومنهم آخرون من أهل سورية والاستانة وغيرها من الاقطار كالامير شكيب ارسلان والشيخ طاهر الكيال والشيخ عبد القادر المغربي ، وله آثار مخطوطة ومطبوعة في عصره أشهرها رسالة الرد على الدهريين وجريدة العروة الوثقى التي نشرها بباريس سنة ١٨٨٤

كل ذلك متفق في تعريف الرجل الينا أو تعريفنا به ، ويعارضه تلخيص بالعربية عن ترجمة المانية لترجمة فرنسية لرده بالعربية على رينان — فيه ايهام التلخيص واحتمال الخطأ فيه — وعدم الثقة بمطابقة الترجمة الالمانية للفرنسية والترجمة الفرنسية للاصل العربي الذي كتبه السيد ردا على رينان ، فاذا هو بهذه الظلمات الثلاث أقرب الى التأييد منه الى الرد والمشهور انه رد ، على أننا فهمنا منه غير مافهمه صاحب المحاضرة

فأي هذين الامرين المتعارضين نرجح ؟ أقمنا المؤيد بالآثار المخطوطات والمطبوعات ، وبروايات الثقات الاثبات أم فهمه المعارض بكل ما ذكرنا الذي تعلوه تلك الظلمات الثلاث انا نرى أهل الفرق المختلفين في اصول الدين الواحد

منهم على مذهبه بنصوص من كتاب ذلك الدين الالهي وكذلك المختلفون في الفروع قد يرد بعضهم على بعض بنصوص الكتاب وأقوال الرسل عليهم السلام. بل نرى أهل دين يستدلون بكتاب غير كتابهم على خلاف ما اجمع عليه المؤمنون بذلك الكتاب، كما ألف بعض دعاة النصرانية كتابا استدل فيه بآيات من القرآن على أن التوراة والانجيل اللذين بأيدي أهل الكتاب حق كما أنزلهما الله وأنه لا تحريف فيهما ولا تبديل . وأنه يجب العمل بهما بعد الاسلام ! !

انا نجد فيما لخصه الاستاذ صاحب المحاضرة من رد السيد جمال الدين على رينان جملا متفرقة تخالف جملا أخرى منها وتحول دون صحة النتيجة التي استنبطها من مجموع الرد وقد يؤيدها في ذلك جملة من تلخيص رد رينان على السيد

أول مالخصه من رد السيد قوله :

« تشتمل محاضرة الموسيو رينان على نقطتين أساسيتين فقد حاول هذا المفكر العظيم أن يبرهن على أن الديانة الاسلامية [illegible] لها من نشأة خاصة تناهض العلم وان الامة العربية [illegible] الطبيعة ولا الفلسفة

« ويظهر ان الموسيو رينان يقول ان هذه النبتة الصالحة ذبلت في أيدي المسلمين كما يذبل النبات تلفحه ريح الصحراء الساخنة »

« وان المرء ليتساءل بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها : أصدر هذا الشر عن الديانة الاسلامية نفسها ؟ أم كان منشؤه الصورة التي انتشرت بها الديانة الاسلامية في العالم ؟ أم ان أخلاق الشعوب التي أعتنقت هذا الدين أو حملت على اعتناقه بالقوة — وعاداتها ومواهبها الطبيعية — هي جميعا مصدر ذلك ؟

« ولا ريب (١) أن الوقت المخصص لرينان قد حال دون اجلائه هذه النقطة » اهـ بحروفه فيؤخذ من هذه الجملة أو الجمل أمور :

(أحدها) — أن السيد صرح بان رينان حاول أن يبرهن على نظريته في

(١) الظاهر أن هذه الجملة استئناف يأتي فواو العطف في أولها غلط

الاسلام ، لا أنه برهن ، ومعنى حاوله طلبه بحيلة كما بينه الزمخشري في أساس البلاغة وانما يلجأ الى الحيلة العاجز

(ثانيها) — أنه حاول ذلك بأخذه من نشأة هذا الدين الخاصة وكون العرب الذين نزل كتابه بلغتهم غير مستعدين للعلم والفلسفة - لا من طبيعته وتعاليمه

(ثالثها) — أن الاسلام نفسه نبتة صالحة — أو العلوم — فالعبارة محتملة، وأنها ذبلت في أيدي المسلمين وتصوحت كما يتصوح النبات الغض تلفحه ريح السموم

ومعنى هذا على الوجه الثاني ان العلوم وجدت في عهد الاسلام ثم ذبلت ، وهذا حق فالتاريخ يشهد ان العرب هم الذين أحيوا العلم والفلسفة بعد ان أخرجهم الاسلام من أميتهم ، وانها انما ذبلت بعد ضعف دولهم ، ثم جفت ويبست بعد زوال تلك الدول ، وسيأتي تفصيل ذلك

(رابعها) — قوله : ان المرء ليتساءل بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها

أصدر هذا الشرع عن [illegible] الصورة التي انتشرت بها الديانة الاسلامية [illegible] نقله

والذي يتفق مع سيرة السيد مجملة ومفصلة بل الذي نقل عنه صراحة هو ان اسلام القرآن أكمل هداية للبشر وأنه كافل المدنية الفاضلة التي مات الفلاسفة والحكماء في حسرة من فقدها وعدم اهتداء السبيل اليها ، وان المسلمين لم يقوموا بكل ما أرشد اليه الاسلام من كل وجه، وأنهم جنوا على دينهم حتى نفروا الناس منه في القرون الاخيرة، وقد نقلنا في الكلمة العجلى بعض ماروى لنا الثقات عنه في آخر عمره في الاستانة أي بعد التطور الذي استنبطه الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق فكان منشأ أغلاطه . ومما يؤثر عنه وسمعه منه الكثيرون : أن القرآن لايزال بكرا لم يفسره احد حق تفسيره ، وان فيه من الهداية ما يناسب كل عصر، وان المسلمين أخذوا من هدايته المدنية في كل عصر بقدر استعدادهم وأحوالهم الاجتماعية، ولولا ما سنشير اليه من الصدمات التاريخية لبلغوا به الكمال المدني كما بلغوا الكمال الديني — يؤيد فهمنا هذا ما نقله الاستاذ صاحب المحاضرة

من رد رينان على السيد جمال الدين قبل خاتمتها وهو قوله :

« ويلوح لي أن الشيخ جمال الدين قد زودني بطائفة من الآراء الهامة(١) تعينني على نظريتي الاساسية وهي أن الاسلام في النصف الاول من وجوده لم يحل دون استقرار الحركة العلمية في الاراضي الاسلامية . ولكن في النصف الثاني خنق الحركة العلمية وهي في حظيرته فكان هذا من سوء حظه » أه

أضف الى هذا إطناب السيد في تفنيد رأي رينان في العرب — واستنتج منهما أنه يعني بالنصف الاول عصر الدول العربية المحضة قبل تغلب الاعاجم على خلفاء العرب من ترك وفرس — وبهذا تعلم أن السيد قد هدم محاضرة رينان ونسفها نسفا برقة ولطف ، كالماء تخلل أساس بناء بني على شفا جرف هار فانهار به ، وان كل ماوافقه عليه هو أن المسلمين قد وجد منهم كثيرهم في نشأة الاسلام الاعجمية في النصف الثاني من حياته ماخنق الحركة العلمية ، فكل ما أسنده الى الاسلام موافقا لرينان يريد به الاسلام [illegible] ، لا الاسلام العربي المنصوص في القرآن والسنن ، [illegible] ولا وجه لدفع التناقض الذي يصان عنه كلام العقلاء الا ماذكرنا

شرح الشيخ محمد عبده لرد الافغاني على رينان

إنني أستطيع أن أشرح لك أيها القارىء هذا الحكم ولكنك غني عن شرحي بشرح أكبر تلاميذ السيد جمال الدين ومريديه وأعلم الناس بآرائه والمطلع على رده على رينان بنصه ، فهو قد شرح هذا الرد بكتاب حافل ، تعتز به الخزائن والمحافل ، الا وهو (كتاب الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية)

أورد في هذا الكتاب بضعة من أصول الاسلام هي نصوص جلية وبراهين قطعية ، على كونه دين العلم والعقل والمدنية ، ثم ذكر خلاصة تاريخية لمؤرخي الاسلام والافرنج عن الدول العربية ، تثبت ان تلك المدنية الزاهرة وانتشار العلم والفلسفة

(١) — المنار : الصواب المهمة فان المهم ما يهتم به الانسان والهام المذنب ، ومن سجع الاساس : أهمه حتى هده

كان نتيجة تلك الاصول الاسلامية واستعداد الامة العربية . ومما نقله من كلام غوستاف لوبون الفيلسوف المؤرخ الفرنسي فيه : إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين

وبعد أن شرح نتائج تلك الاصول فتح بابا آخر الكلام عنوانه (الاسلام اليوم او الاحتجاج بالمسلمين على الاسلام) وصف فيه سوء حال المسلمين علمائهم ودهمائهم — وذكر أنه هو الذي حمل رينان على الطعن في الاسلام واتخذه حجة له — وقد أورد ذلك بصيغة السؤال ثم أجاب عنه بعد أن سماه « جمود المسلمين » جوابا بين به أسبابه والمخرج منه ومما قاله في أوائل هذا الجواب والعنوان لنا:

ضعف الاسلام العربي بتغلب الاعاجم

« أنظر كيف صارت مزية من مزايا الاسلام سببا فيما صار اليه أهله : كان الاسلام دينا عربيا، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا، بعد أن كان يونانيا، ثم أخطأ خليفة في السياسة فاتخذ من سعة الاسلام سبيلا الى ما ظنه خيرا له : ظن أن الجيش العربي قد يكون عونا لخليفة علوي لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم . فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهم من الامم التي ظن أنه يستعبدها بسلطانه ، ويصطنعها باحسانه . فلا تساعد الخارج عليه، ولا تعين طالب مكانه من الملك . وفي سعة أحكام الاسلام وسهولته ما يبيح له ذلك . هنالك استعجم الاسلام وانقلب عجميا

خليفة عباسي أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه ، وبئس ما صنع بأمته ودينه، اكثر من ذلك الجند الاجنبي وأقام عليه الرؤساء منه ، فلم تكن الا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء، واستبدوا بالسلطان دونهم، وصارت الدولة في قبضتهم . ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الاسلام والقلب الذي هذبه الدين، بل جاؤا الى الاسلام بخشونة الجهل يحملون ألوية الظلم . لبسوا الاسلام على أبدانهم، ولم ينفذ منه شيء الى وجدانهم ، وكثير منهم كان يحمل إلهه معه

يعبده في خلوته، ويصلي مع الجماعات لتمكين سلطته، ثم عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم ومنهم من تولى أمره

«أي عدو لهؤلاء أشد من العلم الذي يعرف الناس منزلتهم، ويكشف لهم قبح سيرهم ؟ فمالوا على العلم وصديقه الاسلام ميلتهم أما العلم فلم يحفلوا بأهله، وقبضوا عنه يد المعونة، وحملوا كثيرا من أعوانهم أن يندرجوا في سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيله، ليعدوا من قبيله . ثم يضعوا للعامة في الدين ما يبغض اليهم العلم ويبعدهم عن طلبه . ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين : زعموا الدين ناقصا ليكملوه، أو مريضا ليعالجوه، أو متداعيا ليدعموه، أو يكاد أن ينقض ليقيموه

«نظروا الى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية . وفي عادات من كان حولهم من الامم النصرانية، فاستعاروا من ذلك للاسلام ما هو براء منه . لكنهم نجحوا في اقناع العامة بأن في ذلك تعظيم شعائره، وتفخيم أوامره والغوغاء عون الغاشم، وهم يد الظالم، فخلقوا لنا من الاحتفالات بتلك الاجتماعات، وسنوا لنا من عبادة الاولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة وأركس الناس في الضلالة، وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم، وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول . ثم بثوا أعوانهم في أطراف الممالك الاسلامية ينشرون من القصص والاخبار والآراء ما يقنع العامة بأنه لا نظر لهم في الشؤون العامة . وأن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم، ومن دخل في شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه، وأن ما يظهر من فساد الاعمال واختلال الاحوال ليس من صنع الحكام وانما هو تحقيق لما ورد في الاخبار من أحوال آخر الزمان وأنه لا حيلة في اصلاح حال ولا مآل، وأن الاسلم تفويض ذلك الى الله وما على المسلم الا أن يقتصر على خاصة نفسه . ووجدوا في ظواهر الالفاظ لبعض الاحاديث ما يعينهم على ذلك وفي الموضوعات والضعاف ما شد أزرهم في بث هذه الاوهام . وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلين وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم في جميع الاطراف

واتخذوا من عقيدة القدر تثبيطا للعزائم وغلا للايدي عن العمل . والعامل الاقوى في حمل النفوس على قبول هذه الخرافات انما هو السذاجة وضعف البصيرة في الدين وموافقة الهوى . أمور اذا اجتمعت أهلكت . فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ورسخ في نفوس الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم و يباينها على خط مستقيم كما يقال

هذه السياسة — سياسة الظلمة وأهل الاثرة — هي التي روجت ما ادخل على الدين مما لا يعرفه وسلبت من المسلم أملا كان يخترق به أطباق السموات، وأخلدت به الى يأس يجاور به العجماوات . فجل ما نراه الآن مما نسميه اسلاما فهو ليس باسلام وانما حفظ من أعمال الاسلام صورة الصلاة والصوم والحج ومن الاقوال قليلا منها حرفت عن معانيها [illegible] الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات الى الجمود الذي ذكرته وعدوه دينا . نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ورسوله [illegible] ليس من الاسلام وانما هو شيء آخر [illegible] الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) يشهد بأنهم كاذبون وأنهم عنه لاهون وعما جاء به معرضون . وسنوفي لك الكلام في مفاسد هذا الجمود ونثبت انه علة لا بد أن تزول اه المراد منه هنا (للكلام بقية)

رسائل الطعن فى الوهابية

كان السلطان عبد الحميد يخاف عاقبة نهضة العرب الدينية في نجد إذ كان يعتقد هو وبعض أركان دولته أن العرب لا تجتمع لهم كلمة ولا تقوم لهم دولة الا بدعوة دينية كما قرره حكيمهم ابن خلدون في مقدمته — فكان يغري بعض امرائهم ببعض كاغراء آل رشيد بآل سعود ، وكان المنافقون من المعممين يتقربون الى حكومته بالطعن في الوهابية ويزعمون أنهم يخدمون بذلك الدين وينصرون السنة ، ولكننا لم نر أحدا من هؤلاء المنافقين نصر

لدين بالرد على الملاحدة ولا على دعاة النصرانية الذين يطعنون في أصل الاسلام وكتابه ورسوله لتنصير المسلمين ، وكان بعض حشوية الشام المتملقين أشد الناس اسرافا في الطعن في الوهابية فلا يكادون يذكرون في كل البلاد العثمانية بقدر مايذكرون في دمشق وحدها .

وقد خفت هذه الوطأة في السنين الاخيرة ثم اشتدت بعد استقرت امارة عبد الله بن الملك حسين في شرق الاردن وشاع أن الوهابية سيزحفون للاستيلاء على هذه المنطقة لانتزاعها من السلطة الحجازية البريطانية ، وكان بعض الجرائد المسيحية في دمشق والقدس أول ميادين هذه الحملة . فاستجابها النصارى يطعنون في الوهابية ويفضلون امراء الحجاز على امراء نجد من طريق السياسة بل ذكرت جريدة (لسان العرب) التى تأخذ راتبا شهريا من الامير عبدالله ومنحتها جريدة القبلة الحجازية لقب [illegible] لسان أقوامها [illegible] أنه يجب على النصارى في سورية وفلسطين تأييد الملك حسين وأولاده لان حكومتهم مدنية لا اسلامية بخلاف حكومة نجد فانها [illegible] أبواب صحفهم لكل من يطعن في الوهابية من المسلمين [illegible] لاجل هذه الغاية السياسية

وفي هذه الا[illegible] رسائل من دمشق ورسالة من بيروت في الطعن في الوهابية كتب على ظهر بعضها أنها « توزع مجانا وقفا لله تعالى » وعلى البعض الآخر « توزع مجانا في محبة رسول الله صلى الله عليه » وغير معهود من أصحابها هذا السخاء في نشر العلم والدين ! !

لم يرسل الينا هذه الرسائل مؤلفوها ، بل أرسلها بعض أهل العلم والدين لنرد عليها . وقد تصفحنا أوراقا من كل منها من أولها وآخرها فلم نر شيئا منها يستحق أن يكرم بالرد ، لانهم يقولون زورا ويختلقون أفكارا ويردون عليها كما يردون بعض الحق بمحض الجهل وتقليد العوام ومجاراتهم وجعل البدع الفاشية فيهم سلفا مجمعا عليها . بل ذكروا في رسائلهم من الاحاديث الموضوعة والآثار المصنوعة والكذب على السلف الصالح والائمة مايعد معه الكذب على الشيخ محمد عبد الوهاب وأهل نجد أمراً هينا فان كذبا عليه (ص) ليس ككذب على غيره فمن كذب عليه متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، كما تواتر عنه عليه صلوات الله وسلامه . على أن بعض علماء دمشق الاثريين قد ردوا

عليهم برسائل فضحوا بها ما ستروا ولفقوا ما لفقوا

فمن هذه الرسائل ثلاث لرجل في دمشق يدعى الشيخ عبد القادر الكيلاني الاسكندراني لقيته في دمشق غير مرة فاوهمني أنه يكره الحشو والبدع ويحب الاصلاح . وما كنت اظن فيه أن يكتب امثال هذه الرسائل ولكنها هي أدل على حقيقة حاله مما تراءى لي منه

(ومنها) رسالة لرجل عامي لاندري أهو من طائفة المعممين أم من غيرهم اسمه محمد توفيق السويقة — وقد كتب عليها أنها الرسالة الاولى

(ومنها) رسالة للشيخ محمد جميل الشطي الحنبلي سماها (الوسيط بين الافراط والتفريط) اصب فيها نفسه حكما بين الوهابية وغلاة خصومهم وكنا نظن أنه يحكم عن علم ، ويلتزم الحق فلا يجور في الحكم ، فاذا هو خصم أي خصم ، نقل عنهم ماليس عندهم ، ولبس الحق بالباطل ، ولم يميز بين الاواخر والاوائل ، بل جعل الخلف الطالح ، كالسلف الصالح ، وبدعهم في بعض المواضع من حيث لا يدري بل في سياق الرد عليهم ، واعتمد في هذا الرد على كلام اعدائهم ومقلدة أعدائهم

رد على هذه الرسائل الشيخ [illegible] الدين [illegible] الجزائري والشيخ أبو اليسار الدمشقي ، فأتيا بما يكفي دافعا [illegible] ومزيلا لشبهاتها ، وإن لم يستقصيا جميع ضلالاتها ، وردهما عليها رد على رسالة الشيخ مصباح شبقلو البيروتي .

فان كل الذين يردون على الوهابية يستمدون الافتراء عليهم من مصدر واحد كما أن مصدر مادتهم العلمية والدينية واحد هو التقليد لمتأخري مقلدة الحشوية وبدعهم ، فلا تحري في النقل ، ولا استقلال في الفهم ، ولا رسوخ في شيء من العلم ، وأنى والعلم الذي فرضه الله على كل مسلم محرّم عندهم ، لانه يدخل في مفهوم الاجتهاد الذي أقفل بابه بعض شيوخ مشايخهم ، وشرعوا للناس تقليد المجتهدين بدلا منه ، ثم شرع آخرون لهم تقليد المقلدين ، وجعلوا من ينتسب الى مذاهبهم من الميتين ، الى خمس طبقات مرتبة في خمس دركات على أنهم يستدلون فيجتهدون لتأييد التقليد ، لان الاجتهاد المحرم عندهم ما يطلب به الحق لذاته ، ولذلك يحتجون بالاحاديث الموضوعة أو المفتراة حديثا لان مشايخهم ذكروها ، ولا يعلم الفريقان أن المحدثين أنكروها أو لم يثبتوها ، والتمييز بين الاحاديث الصحيحة والباطلة من شروط العلم المحرم عندهم . وان لنا كلمة فاصلة فيهم وفي بيان عقائد الوهابية سيرونها في جزء آخر